تاريخ بداية المراجعة يوم الجمعة 14 / 7 / 2000 م

كتاب حياة الأئمة الأربعة

أبو حنيفة مالك الشافعي أحمد في الحديث الشريف

24 / جمادى الأولى 1424 هـ
الموافق 25 / 7 / 2003 ..

تأليف
المفتي العام الدكتور عبد الوهاب زاهد

الباب الأول

فيه أربعة فصول

الفصل الأول

أبو حنيفة رحمه الله تعالى

ولد عام 80 هـ توفي 150 هـ

الفصل الثاني

مالك بن أنس رحمه الله تعالى

ولد عام 93 ه توفي 179 ه

الفصل الثالث

محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى

و لد عام 93 هـ توفي 179 هـ

الفصل الرابع

أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى

و لد عام 164 ه توفي 241 ه

الفصل الأول

الإمام الأعظم أبو حنيفة رحمه الله تعالى :

هو الإمام الثقة الورع الذي نسب إليه المذهب الحنفي الذي انتشر في سائر المعمورة الإسلامية حتى غدا من أكثر المذاهب أتباعاً و أغناهم مؤنةً ، حتى قال الإمام الشافعي رحمه الله : ما

طلب أحد الفقه إلا كان عيالاً على أبي حنيفة ، و ما قامت النساء على رجل أعقل من أبي حنيفة [1] ، وفي رواية : الناس عيال على أبي حنيفة [2] .

1 ـ نسبه رحمه الله

هو فقيه العراق الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي مولى بني تيم الله بن ثعلبة [3] ، و قال صاحب " أوجز المسالك " : هو نعمان بن ثابت بن زوطي [4] ، و قد ولد جده زوطي بكابل ، و اختلف في ولادة أبيه ، في خلافة عبد الملك بن مروان ، و مات في الذي ولد فيه الإمام الشافعي رحمه الله و ذلك في عام 150 ه [5] .

و هو فارس الأصل عربي الولادة و المنشأ ، من الأحرار الذين لم يجر عليهم رق قط ، و قد اختلف في ذلك .

قال الدكتور أحمد أمين : و كان ثابت مملوكاً لرجل من ربيعة من بنى تيم الله بن ثعلبة [6] من من يقال لهم : نبي فقل ، فكان أبو حنيفة مولى لبني تيم الله ، و لذلك يقال : أبو حنيفة التيمي ،

---

1 ـ العبر في خبر من غبر للذهبي ص 214 0 والخيرات الحسان لابن حجر ص 20

2 ـ ظهر الإسلام للدكتور أحمد أمين ص 54 0 والرجع السابق ن وكذا وفيات الأعيان 2 ـ 166

3 ـ الخيرات الحسان 19 ، والعبر في خبر من غبر ، وتذكرة الحفاظ للذهبي 1 ـ 158

4 ـ المناقب للموفق الخوارزمي 1 ـ 6 ، ومقدمة اوجز المسالك

5 ـ المناقب للموفق الخوارزمي 1 0 4 . وضحى الإسلام

6 ـ ضحى الإسلام للدكتور أحمد أمين رحمه الله

يعنون أنه تيمي بالولاء . ثم يقر الدكتور أحمد أمين ثانيةً بقوله : فرووا أنه من أحرار فارس و لم يجر عليه رق قط [7] .

وهذا اسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة يصرح ويقول : أنا اسماعيل بن حماد بن النعمان بن ثابت بن النعمان بن المرزبان من أبناء فارس الأحرار ، والله : ما وقع علينا رق قط ، و لد جدي سنة ثمانين وذهب ثابت إلى علي بن أبي طالب وهو صغير فدعا له بالبركة فيه وفي ذريته ، ونحن نرجوا أن يكون الله قد استجاب لعلي فينا .

والنعمان أبو ثابت : هو الذي أهدى لعلي بن أبي طالب الفالوذج في يوم مهرجان فقال : كل يوم مهرجان [8] .

إن هذا التصريح من حفيد أبي حنيفة الذي يقسم أنه لم يجر عليهم رق قط ، هو أعلم بنسبه وبما يقسم .

و لهذا نقرر ـ و الله أعلم ـ أن إمامنا رحمه الله فارس الأصل حر لم يجر عليه رق و هو من أسرة عريقة بالثراء .

وقد نشأ بالكوفة دار ولادته ، بين أهل العلم والفضل ، حتى نبغ و أصبح ممن يشار إليهم بالبنان .

قال الذهبي : جمع بين الفقه و العبادة و الورع و السخاء ، و كان لا يقبل جوائز الدولة بل ينفق من كسب [9] .

---

7 ـ المرجع السابق

8 ـ في الأعلام للزركلي 2 ـ 6 ـ 11 ، وفيات الأعيان لابن خلكان 2 ـ 163 ، وتاريخ بغداد للبغدادي ، كتاب الخاسة في مناقب الئمة الثلاثة ص 4 و 5

9 ـ العبر في خبر من عبر للذهبي 214

لأنه ورث من أبيه ثابت ثروةً ماليةً كبيرةً غير الأملاك و العقارات ، و قد أنفق كل ذلك على العلم و أهله ، فقد كان كريماً سخياً متواضعاً ، بقي رحمه الله أربعون سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء .

2 - خَلْقُه وخُلُقُه رحمه الله :

يقول ابن خلكان : كان أبو حنيفة حسن الوجه ، حسن المجلس ، شديد الكرم حسن المواساة لإخوانه ، و كان ربعة من الرجال ، و قيل : طوالاً ، يعلوه سمرة ، أحسن الناس منطقاً و أحلاهم نغمةً (10) .

وهذا تلميذه ابن المبارك يقول : كان حسن الوجه ، حسن الثياب ، غير أن ولده حماداً يقول : كان تعلوه سمرة ، جميلاً حسن الوجه ، مهيباً لا يتكلم إلا جواباً ، و لا يخوض فيما لا يعنيه (11) .

ولا تنافي بين كونه ربعة و بين كونه طويلاً ، لأنه قد يكون مع كونه ربعةً أقرب إلى الطول .

وإن ما يتصف به من جمال الخلقة لأو غيره من طول أو قصر أو حسن أو قبح لا يتصل ذلك بقرب أو بعد من الله ، بل الميزان

---

[10] ـ وفيات الأعيان ، وعقود الجمان في المناقب للموفق 1 - 20

[11] ـ الخيرات الحسان لابن حجر ، وعقود الجمان

المستقيم الذي يزن الله الناس به هو ميزان العمل والتقوى وحسن السيرة .

وكان إمامنا رحمه الله ممن يتصف بالسيرة الحميدة والأخلاق الحسنة ، حتى قال عنه شريك : كان رحمه الله طويل الصمت ، كثير العقل ، قليل المجادلة للناس ، قليل المحادثة لهم [12] ، حتى غدا ممن لا يختلف فيه أن مستقيم اللسان ، فقال ضميره : لم يختلف الناس أنه كان مستقيم اللسان لم يذكر أحداً بسوء [13] .

نعم بما يملك من عقل وفضل ، وبما يتصف من الورع والتقوى ، أحرى من أن يسلط على نفسه ذنوب غيره ، و يخسر أعماله الحسنة التي يعملها لله سبحانه ، فلهذا حفظ لسانه من الغيبة والنميمة ، وهو العالم الفقيه الذي فقه دينه ، وقد شهد له الأفاضل الكرام .

قال بكير بن معروف : ما رأيت رجلاً أحسن سيرةً في أمة محمد من أبي حنيفة [14] ،

وهذا السيوطي يحكي لنا عن جعفر بن الربيع أنه قال : أقمت عنده خمس سنين ، فما رأيت أطول صمتاً منه ، فإذا سئل عن الفقه نفح و سال كالوادي ، و سمعت له دوياً و جهارة بالكلام [15] .

---

12 ـ العبر في خبر من غبر للذهبي

13 ـ الخيرات الحسان ،و المناقب للكردري

14 ـ طبقات ابن سعد ، والمناقب للكردري

15 ـ المناقب للكردري

ثم ذكر الذهبي بسنده إلى مجالد قال : كنت عند الرشيد إذ دخل عليه أبو يوسف فقال له هارون : صف لي أخلاق أبي حنيفة ، قال : كان و الله شديد الذب عن حرمات الله ، مجانباً لأهل الدنيا ، طويل الصمت ، دائم الفكر ، لم يكن مهذراً و لا ثرثاراً ، إن سئل عن مسألة كان عنده بها علم أجاب فيها ، و ما علمته يا أمير المؤمنين إلا صائناً نفسه ودينه ـ مشتغلاً بنفسه عن الناس ـ لا يذر أحداً إلا بخير ، فقال الرشيد : هذه أخلاق الصالحين [16] .

هكذا شأن الأخلاق عادتها أن تتغذى ، وتروي جذورها من ثمرات الإيمان ، فهي تنبيء عما يُعَمِّرُ قلبَ صاحبها من إيمانٍ وتقوى وبرٍ ، وكلما قوي الإيمان ، واستولى على القلب ، واستكمل منه ، وملأله بنوره ارتقت أخلاق صاحبها ، و اتسعت وعمت جميع جوانب الحياة ؛ كما هو حال وصف الإمام رحمه الله تعالى .

3 ـ أخذه العلم رحمه الله :

16 ـ جزء الإمام الذهبي في فضائل أبي حنيفة ، وأبي يوسف ومحمد (طبع مصر بإشراف الشيخ أبو الوفاء الأفغاني ، والشيخ زاهد الكوثري رحمهما الله .

منذ الخلافة الراشدة ، التي كانت تمتاز بالإخلاص للدعوة إلى الإسلام ، على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في نشر الإسلام ، عن طريق العلم والوعي الثقافي والنضوج الفكري المستمد من القرآن الكريم لقوله تعالى : ((هل يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون)) [17] و قوله تعالى : ((إنما يخشى الله من عباده العلماء)) [18] وقول رسول الله الكريم صلى الله عليه وسلم : ((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)) [19] .

وقوله صلى الله عليه وسلم : ((العلماء ورثه الأنبياء)) [20] .

فقد سارت الخلافة الراشدة ابتداء من الخليفة الأول أبي بكر و عمر وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم في إرسال علماء الصحابة إلى الأفاق ، لنشر هدى المصطفى وسنته ، وتعليم القرآن الكريم ، و توجيه البشرية إلى طريق الصواب المستقيم ، فقد نالت بلاد العراق و بلاد ما وراء النهرين الخط الوافر من كبار العلماء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضي الله عنهم أجمعين .

ثم كان إخلاص الصحابة رضي الله عنهم في نشر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم دافعاً لرحلة الصحابة من قطر إلى

---

17 - الزمر 9
18 - فاطر 28
19 - رواه مسلم
20 - النسائي

قطر و من مصر إلى مصر ، يبحثون و يجتمعون مع من أرادَ العلمَ ورغبَ فيهِ ، فقد كانت العراق و بلاد ما وراء النهرين ، محفلاً لطلاب العلم ، وروادِ السنة المطهرة والقرآن الكريم ، وسوقاً راجت فيه الآداب وكثرت فيه مجالس الفقه والحديث ، وحافظت بلاد العراق على هذه الميزة أكثر من غيرها من الأقطار الأخرى إلى زمن طويل ، هذه البصرة المدرسة العلمية ، وتلك الكوفة المنزل الأمين الوديع لأهل العلم ، والفضل من كبار التابعين .

في هذا البيت وفي هذه البيئة العلمية الناضجة ، ولد أبو حنيفة وعاش في نشأته العلمية ، مما تسبب لنبوغه ، فقد استوثقَ لنفسهِ أخذِهِ العلمَ عمن يوثق بهم ديناً و علماً وورعاً .

وقد روى الربيع بن يونس : حين دخل أبو حنيفة على أبي جعفر المنصور ، وكان عنده عيسى بن موسى ، فقال عيسى للمنصور : هذا عالم الدنيا اليوم ، فقال له : يا نعمان ! عمن أخذت العلم ؟ .

قال : عن أصحاب عمر عن عمر ، وعن أصحاب علي عن علي ، و عن أصحاب عبد الله عن عبد الله - ابن مسعود - و ما كان في وقت ابن عباس على وجه الأرض أعلم منه .

قال لقد استوثقت لنفسك [21] .

---

[21] - تاريخ بغداد 13 - 333

هكذا أخذ العلم ، و استخلص لعلمه ودينه خلاصه البشرية بعد رسول الله و الأنبياء من بعده عليه وعليهم الصلاة والسلام .

وأما بداية علمه ونشأته ، فقد توجه إلى حفظ القرآن الكريم منذ نعومة أظفاره و فهمه ، و توجه إلى علماء الكلام و المنطق حتى نبغ و أصبح يشار إليه بالبنان .

و هذا تلميذه الإمام زفر ـ رحمه الله ـ يقول : سمعت أبا حنيفة يقول : كنت أنظر في الكلام حتى بلغت فيه مبلغاً يشار إلي فيه بالأصابع ، و كنا نجلس بالقرب من حلقة حماد ـ رحمه الله ـ فجاءتني امرأة يوماً فقالت : رجل له امرأة أراد أن يطلقها للسنة كم يطلقها ؟ .

فأمرتها أن تسأل حماداً ثم ترجع فتخبرني ، فسألت حماداً فقال : يطلقها وهي طاهرة من الحيض والجماع تطليقةً ، ثم يتركها حتى تحيض حيضتين ، فإذا اغتسلت حلت للأزواج ، فرجعت فأخبرتني فقلت : لا حاجة لي في الكلام ، و أخذت نعلي فجلست إلى حماد ، أسمع مسائله فأحفظ قوله ، ثم يعيدها من الغد فأحفظ ويخطيءُ أصحابه ، فقال : لا يجلس في صدر الحلقة بحذائي غير أبي حنيفة [22] .

---

[22] - تاريخ بغداد 13 - 333 ، الخيرات الحسان ص24 ، وكتاب أبو حنيفة للغاوجي

وقال أبو حنيفة رحمه الله : فجعلت على نفسي أن لا أفارق حماداً حتى يموت ، فصحبته ثمانية عشر سنة [23] .

هكذا كان في بداية تحوله عن علم الكلام ، حيث كان يتعلمه من أجل مناظرة الفرق التي كثرت في البصرة خاصةً و العراق عامةً ، وكان في قلبه أن الصحابة رضون الله عليهم حملوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمه وسنته ليعلموها الناس من أجل العمل بها ، و قد سار على نهجهم التابعون ، فألهمَ أبو حنيفة طلبَ العلم ، وهيأ الله له الشعبي المحدث المشهور فأيقظه إلى النظر في العلم و مجالسه العلماء ، وقد وافق نبوغه و ذكائه و حبه للعلم ، فتوجه للعلم وأخذ منه مأخذاً عظيماً حتى إنه ترك عمله في السوق واختص للعلم ، وقد ساعده غناه المادي وعدم حاجته لكسب دنيوى ، إذ كان عنده ما يسد حاجته ، و قد حافظ على عمله التجاري بأسلوب لا يتأثر العلم به ، ولزم حماد بن سليمان شيخه ، و أخذ منه علم النخعي وعلقمة ، وأخذ عنهما علم أجلاء الصحابة ، و ما زال يلازم حماداً لا يفارقه مستفيداً ، حتى قالت عاتكة أخت حماد : كان النعمان ببابنا يندف قطننا ، و يشتري لبننا و بقلنا و ما أشبه ذلك ، فكان إذا جاءه الرجل يسأله عن المسألة قال له : ما مسألتك ؟ ، قال : كذا وكذا ، قال : الجواب فيها كذا و كذا ، ثم

---

[23] - كتاب أبو حنيفة للأستاذ الغاوجي ص 45 - 46 وحاشية الإمام الكوثري على اختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة لابن تيمية

يقول : على رسلك ، فيدخل إلى حماد فيقول له : جاء رجل يسأل عن كذا و كذا فأجبته بكذا فما تقول أنت ؟ .
قال حدثونا بكذا ، و قال أصحابنا كذا ، و قال إبراهيم كذا فيقول : فأروي عنك ؟ فيقول نعم ، فيقول : قال حماد كذا ، و هكذا كان شأنه معه ملازمةً و خدمةً متوازنتين [24] .
وكان يعرف فضل شيخه عليه و يعتبره كوالده ، فقد روى محمد بن الحسن بن أبي بشير قال : سمعت أبا حنيفة رحمه الله يقول : ما صليت صلاةً منذ مات حماد إلا استغفرت له مع والدي ، و إني لأستغفر لمن تعلمت منه علماً أوعلمته علماً ، وروي عنه أنه قال : ما مدت رجلي نحو دار حماد إجلالاً له ، وكان بين داري و داره سبع سكك [25] .

فقد لزم حماداً يتعلم منه الفقه المستمد من فقه النخعي المستمد من فقه عمر بن الخطاب و علي بن أبي طالب و ابن مسعود و ابن عباس رضي الله عنهم .
فقد تلقى علمه من كبار التابعين ، و أكثر الأخذ عن الأئمة العظام في عصره ، و كان يكثر التردد على الأعمش المحدث والتابعي يستفيد منه ويحفظ عليه الحديث ، و إليك هذه الرواية التي يذكرها الصيمري في كتابه " أخبار أبي حنيفة " : يدخل

---

[24] - ابو حنيفة للغاوجي 45 - 46 عن حاشية الكوثري على اختلاف في اللفظ والرد على الجهمية ، والمشبهة لابن تيمية ، وتاريخ بغداد 13 - 333
[25] - الموفق في مناقب الإمام 2 - 6 - 7

رجل على الأعمش في مسألة فقال لأبي حنيفة : أجبه ، فأجابه ، فقال له : و من أين لك هذا ؟ قال من حديث حدثتنيه هو كذا و كذا ، فقال الأعمش : حسبك ما حدثتك به في سنة تحدث به في ساعة ، أنتم الأطباء و نحن الصيادلة ([26]) .

إن ما يقول به أبو حنيفة من فتوى مرجعة السنة التي سمعها من مشايخه الأفاضل المحدثين الذين يحملون الحديث و يحدثونه بها ، فيستنبط منها الأحكام ، فقد وفق لفهم السنة المطهرة ، و كان رحمه الله لا يقول بالدليل إلا إذا سئل كما رأينا من شأنه مع شيخه الأعمش .

وهذا شأن أهل العلم في العراق ، فقد تلقوا علمهم عن ابن مسعود ترجمان القرآن ، و ابن عباس حبر هذه الأمة رضي الله عنهما ، و علي بن أبي طالب العقل النابض بالذكاء و الفكر المستنبط لدقائق الأمور ، وعن عمر بن الخطاب صاحب اللسان المستقيم و العدل المبين ، و الذي لا يخشى في الله لومة لائم ، و هو الخليفة الثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، و قد جمع الله له علم رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتهادات إخوانه فقهاء الصحابة أصحاب الرأي و المشورة ، فرضي الله عنه و عن سائر الصحابة الأجلاء الكرام .

وقد اشترط أبو حنيفة : في أخذ الحديث رواية و دراية شرطاً دقيقاً ، فكان لا يقبل إلا ما صح عن رسول الله صلى الله عليه

---

[26] - أبو حنيفة للغاوجي 42 و أخبار أبي حنيفة وأصحابه للصيمري 13

وسلم من آخر فعله وقوله ، وقد تفقه بناسخ القرآن و منسوخه ، حفظ القرآن الكريم و هو صغير .

حتى نقل الصيمري عن الحسن بن صالح قال : كان أبو حنيفة شديد الفحص عن الناسخ والمنسوخ ، فيعمل بالحديث إذا ثبت عنده عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضي الله عنهم ، و كان عارفاً بحديث أهل الكوفة ، وفقه أهل الكوفة ، شديد الاتباع لما كان عليه الناس ببلده ، وقال : كان يقول : إن لكتاب الله ناسخاً و منسوخاً ، و إن للحديث ناسخاً و منسوخاً ، و حافظاً لفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الأخير الذي قبض عليه مما وصل إلى أهل بلده [27] .

وسوف أجعل بحثاً خاصاً في مكانته في الحديث إن شاء الله تعالى راجياً منه التوفيق .

4 ـ شيوخه رحمه الله :

عن مطيع البلخي أنه قال : قال أبو حنيفة : دخلت على أبي جعفر أمير المؤمنين ، فقال : يا أبا حنيفة : عمن أخذت العلم ؟ .

قال : قلت عن حماد عن إبراهيم عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس ، فقال

---

27 ـ أخبار أبي حنيفة للصيمري 11

أبو جعفر : بخ بخ ، استوثقت ما شئت يا أبا حنيفة عن الطيبين المباركين صلوات الله عليهم [28] .

وفي رواية الربيع قال عيسى بن موسى للمنصور : هذا عالم الدنيا اليوم ، و ساق الرواية السابقة مع اختلاف يسير [29] .

كيف لا يستوثق لنفسه في أخذ العلم و هو طريق حياته الذي به نجاته من عذاب الله ، و هو التجارةالتي لا تبور ، و بها يربح في الآخرة ، فهو العاقل وفير العقل ناضج الفكر ، وقد أكثر الأخذ عن علماء التابعين و كبارهم ، فقد روى أبو المؤيد الخوارزمي ـ رحمه الله ـ عن الإمام محمد بن علي الزرنجري ـ رحمه الله ـ قال : أمر الإمام أبو حفص الكبير بعد مشايخ الإمام أبي حنيفة فبلغوا أربعة آلاف [30] .

وذكر غيره قال : له أربعة آلاف شيخ من التابعين منهم : الليث بن سعد [31] و قد يستغرب القارىء الكريم هذا العدد ، و إنه لا غرابة في ذلك حيث كان الإمام رحمه الله حريصاً على أخذ العلم ، و هذا عاش سبعين سنة وحج بيت الله الحرام خمساً و خمسين مرةً ، وفي موسم الحج يجتمع مع علماء العالم الإسلامي في الحرمين الشريفين ، وأقام ـ رحمه الله ـ بمكة أيام عمر بن هبيرة ، وكان ـ رحمه الله ـ لا يجتمع بأحد من

---

28 -
29
30
31

العلماء إلا مستفيداً أو مفيداً ، و قد تفنن المؤرخون في ذكرهم فرتبوهم حسب الأحرف الأبجدية ، و إني أذكر بعضهم اختصاراً كشاهد على استقامة أساس علمه .

فمنهم أنس بن مالك صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و روى عن عطاء بن رباح ، و عاصم بن أبي النجود ، و علقمة بن مرثد ، و حماد بن أبي سليمان ، و الحكم بن عتبة و سلمة بن كهيل ، و أبي جعفر محمد بن علي ، و علي بن أبي الأقمر ، و إبراهيم بن محمد المنتشر الكوفي - هو ابن الأجدع أبو اسحاق ، و النتشر هو أخو مسروق - ، وإبراهيم بن يزيد الكوفي ، والتابعي المشهور اسماعيل بن حماد بن أبي سليمان الكوفي ، و أيوب السختياني البصري ، والحارس بن عبد الرحمن الهمذاني الكوفي ، و سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهم - أحد الفقهاء السبعة ، وكان ثبتاً عابداً فاضلاً و كان شبه أبيه ، و سعيد بن المسروق والد سفيان الثوري ، و سليمان بن يسار الهلالي المدني ، و عاصم بن كليب بن شهاب الكوفي ، و القاسم بن عبد الرحمن بن مسعود و عبد الكريم بن أبي المخارق البصري رحمهم الله (1)
.

و قد ذكرنا أن شيخه الذي تربي على يده و لزمه مماته و أخذ عنه علم النخعي و علقمة ، و قد قال ابن المبارك : كان أبو حنيفة قديماً أدرك الشعبي و النخعي و غيرهما من الأكابر . و قد روى عن بعض أقرانه و معاصريه كالإمام مالك

بن أنس رحمه الله ، فلو نظر الباحث إلى حياة كل رجل من مشايخه الذين استقى منهم و أبو حنيفة ـ رحمه ـ لوجد قلعة ملئت علماً و جبلاً رسخ إيماناً ، و قد اشتهروا جميعاً بالصفات الحميدة التي تجلت في حياتهم العلمية ، و قد اتفق علماء الأمة على عدالتهم و ورعهم و دينهم الموثوق الذي لا يتأثر بتقلبات الحياة ، مما جعل ذلك يحفظ سمة أبي حنيفة و أخلاقه و حسن سيرته في حياته الخاصة الفردية و مع غيره الإجتماعية ، و مما جعله من النوابغ المعدودين ، و الأئمة المتبوعين من أمة محمد ، و هذا عيسى بن موسى يقول لأبي جعفر المنصور : هذا عالم الدنيا اليوم ، و اشتهر عن الشافعي قوله : الناس عيال على أبي حنيفة في الفقه فرحمه الله تعالى .

أبو حنيفة رحمه الله تابعي :

قال الحافظ الذهبي : لقي أنس بن مالك و هو صغير (1) و قال الحافظ ابن سعد : حدثنا أبو الموفق سيف بن جابر قاضي واسط قال : سمعت أبا حنيفة يقول : قدم أنس بن مالك الكوفة و نزل النخع ، و كان يضب بالحمرة ، و قد رأيته مراراً (2) .

و قد اتفق العلماء على أن أبا حنيفة رحمه الله تابعي ، و اتفقوا على أنه أدرك زمان الصاحبة ، و أنه رأى أنس بن مالك و غيره من الصحابة رضي الله عنهم ، و قد اختلف في عددهم و الرواية عنهم . و قد أثبت الذهبي و ابن سعد و والحافظ بن حجر و ولي العراقي و الجزري و الدار قطني و

الخطيب البغدادي و على القاري و أكرم السندي و أبو معشر و جز السهمي و اليافعي و التورشي و السراج كشف الكشاف أن الإمام لقي بعض الصحابة رضي عنهم (1) .

و قد نصوا جميعاً على على أن أبا حنيفة تابعي لقي بعض أصحاب رسول الله ، حتى قال ابن حجر الهيثمي ـ رحمه الله ـ نقلاً عن الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر في فتاوماه : أدرك أن أبو حنيفة

جماعةً من الصحابة كانوا بالكوفة بعد مولده سنة ثمانين ، فهو من طبقة التابعين و لم يلبث ذلك لأحد من أئمة الأمصار المعاصرين له كالأوزاعي بالشام ، و الحمادين بالبصرة ، و الثوري بالكوفة ، و مالك بالمدينة الشريفة ، و الليث بن سعد بمصر 1 ه .

و يقول ابن حجر الهيثمي : فهو من أعيان التابعين الذين شملهم قوله تعالى : ((و الذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم و رضوان الله عنه و أعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم)) (2) .

و إني لم أسجل هنا جميع العلماء من الحفاظ الذين اتفقوا على أن الإمام أبا حنيفة تابعي بل ذكرت طائفة منهم على سبيل الإختصار و حصول القناعة لمن أراد المعرفة و الإطلاع .

ثم إن العلماء بعد أن اتفقوا على أنه تابعي ، اختلفوا في ثبوت الرواية عنهم ، و قد ورد في كتب المناقب و التاريخ أن الإمام لقي عدداً ممن صحب رسول الله و روى عنهم ، و قد جمع الشيخ أبو بكر بن علي بم محمد الحداد العيني أسماء الصحابة الذين روى عنهم الإمام ـ رحمه الله تعالى ـ في بيتين من الشعر :

إن أبا حنيفة قدروى عن سبعة من خير صحب محمد

أنس ووائلة و معقل جابر وأنبأنا أنيس و جزء وابنة عجرد

و قال الحافظ الصالحي في " عقود الجمان " و قد ذكر جماعة ممن صنف في المناقب و غيرهم : إن الإمام أبا حنيفة سمع ثمانيةً من الصحابة و امرأة و هم : أنس بن مالك ، و عمرو بن حريث ، و عبد الله بن أنيس ، و عبد الله بن حارث ، ابن جزء الزبيدي ، و جابر بن عبد الله ، و عبد الله بن أبي أوفى ، و وائلة بن الأسقع بن يسار ، و عائشة بنت عجرد رضي الله عنهم .

و قال بعضهم سبعة و امرأة ، و قال بعضهم خمسة و امرأة ، و شذ بعضهم فقال : أربعة عشر رجل و لم يسمهم (1) .

ثم قال ابن حجر الهيثمي و رد علي من قال : إنه روى و سمع عمرو بن حريث : و اعترض بأن الصحيح أنه مات سنة خمسين و ثمانين ، و القول بأنه عاش إلى سنة ثمان و تسعين لم يثبت .

و منهم عبد الله بن الجهني ، و اعترض بأنه مات سنة أربع و خمسين ، و أجيب أن هذا اسم لخمسة من الصحابة فلعل من روى عنه أبو حنيفة واحد غير الجهني المشهور (2)
و قال الهيثمي : ورد بأن هذا لم يدخل الكوفة ، و أخرج بعضهم بسنده إلى أبي حنيفة قال : ولدت سنة ثمانين و قدم عبد الله بن أنيس صاحب رسول الله الكوفة سنة أربع و تسعين و رأيته و سمعت منه عن رسول الله : ((حبك الشيء يعمي و يصم)) و اعترض بأن هذا السند مجهول ، و بأن الذي دخل الكوفة ابن الأنيس الجهني ، و قد تقرر أنه مات قبل ولادة أبي حنيفو بدهر .
و منهم : عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي ، واعترض أنه مات سنة ست و ثمانين بمصر و كان مقيماً بها .
و أما ما جاء عن أبي حنيفة من أنه حج مع أبيه سنة ستة و تسعين ، و أنه رأى عبد الله هذا يجلس بالمسجد الحرام و سمع منه حديثاً ، فرده جماعة منهم : الشيخ قاسم الحنفي - رحمه الله - بأن سند ذلك فيه قلب وتحريف وفيه كذب اتفاقاً ، و بأن ابن جزء مات بمصر و لأبي حنيفة ست سنين و بأن عبد الله بن جزء لم يدخل الكوفة في تلك المدة .
و منهم جابر بن عبد الله ، و اعهترض بأنه مات سنة تسع و سبعين قبل ولادة أبي حنيفة بسنة ، و من ثمة قالوا في الحديث المروي عن ابي حنيفة عن جابر أنه أمر من لكم

يرزق و لداً كثرة الاستغفار و الصداقة ، ففعل فولد له تسعة ذكور : إنه حديث موضوع .

و منهم : عائشة بنت عجرد ، و اعترض بأن كلام عاصم الذهبي و شيخ الاسلام ابن حجر أن هذه لا صحبة لها و لا تكاد تعرف ، و بذلك رد ما روى أن أبا حنيفة روى عنها هذا الحديث الصحيح : ((أكثر جند الله في أرضه الجراد لا أكله و لا أحرمه)) . و منهم : معقل بن يسار ، و اعترض أنه مات في إ'مارة معاوية رضي الله عنهم ، و معوية مات سنة ستين ، و منهم : سهل بن سعد ، و وفاته سنة ثمان و

ثمانين ، و قيل : بعدها ، و قال صاحب كتاب " مفتاح السعادة " : و الإمام أدرك زمانه و إن لم يره (1) . و منهم السائب بن خلاد بن سويد ، و وفاته في إحدى و تسعين . و منهم الئب بن يزيد بن السعيد ، و وفاته في إحدى أو اثنتين أو أربع و تسعين . و منهم : عبد الله بن بسرة ، و وفاته سنة ست و تسعين . و منهم : محمود بن الربيع ، و وفاته سنة تسع و تسعين ، و منهم : عبد الله بن جعفر ، و اعترض بأنه مات سنة إحدى و ثمانين بأرض حمص . و منهم عبد الله بن أبي أوفى ، و تعقب بأنه مات سنة خمس أو سبع و ثمانين ، و قد روى عنه حديث

((من بنى لله مسجداً و لو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة)) .

و منهم : وائلة بن الأسقع ، روى عنه حديثين ((لا تظهر الشماتة في أخيك فيعافيه الله فيبتليك)) و حديث ((دع ما يريبك إلى ما يريبك)) الحديث الأول عن عبد الله بن أبي أوفى ، رواه الترمذي من وجه أخر و حسنه ، و الحديث الثاني عن وائلة بن الأسقع ، جاء من رواية جمع الصحابة و صححه الأئمة ، و اعترض بأنه مات من ثلاث أو خمس و ثمانين 1 ه (1) .

قلت : و الله المستعان روايته عن عبد الله بن أبي أوفي و من كانت و فاته بعد و لادته رحمه الله تعتبر الرواية دون النظر إلى السن و لكن يشترط التمييز و توفر شروط النحمل كما سنبين إن شاء الله .

و إن ما ورد عن أبي حنيفة رحمه الله بطريق صحيح و سند قوي يقبل و قوي يقبل و هو دليل على روايته الصالحة ، و أم الجواب على من دخل الكوفة أو عاش في المدينة من الصحابة إلى بعد ولادة أبي حنيفة أي بعد بلوغه سن التمييز فإنه يحتمل أنه لقيه و سمعه منه ، فإن جمهور المحدثين يقبلون سماح و تحمل الصبي المميز بغض النظر عن عمره فالتمييز هو المعتبر كما صرح بذلك الإمام النووي و ابن الصلاح ، و بذلك إذا صح افلسند إلى أبي حنيفة صح الحديث ،

لأن الشروط الإمام في رواية الحديث شديدة و هو ثقة صدوق ورع إمام الأئمة في التقي و الورع .

و أما روايته عن أنسى بن مالك فقد صحت و أثبت رؤيته الأئمة و العلماء ورجال التاريخ و علمخ الرجال ـ الجرح و التعديل ـ كما مر معك في أول البحث عن الذهبي و غيره ، و طالما ثبتت رؤيته لأنس فلا يمنع أنه سمع منه ، و خصوصاً عغاش و ولد في البلد التي كان فيها أنس حتى وفاته ، فالمهم ثبوت السنة ، و إني أسال الله السداد و التوفيق للحق و الصواب و أقول :

لقد وقع أبو حنيفة رحمه الله بين صنفين من الناس :

1 ـ صنف محب مفرط .

2 ـ وصنف حاسد مبغض .

فأما الصنف الأول ـ سامحهم الله ـ لما رأو الحساد و المبغضين زادوا في الطعن فيه و فيمن سلك مسلكة و أنهم ردوا رواياتهم ممع الغض من قيمة الإمام ، و أنه أصحابه من أهل الرأي ، ثم احتاروا حسداً من عند أنفسهم في تلفيق الحوادث و الروايات عن لسانه و لسان أصحابه ليبرروا كرههم له و طعنهم فيه ، فقام المحب النفرط براواية أحداث وروايات دون التحقق من راويها و سندها مدعماً فضل الإمام و أنه لم يسبق بالفضل و التقوى و الورع ، و أنه كامل بمعني الكمال التام ، و هكذا تناصح الصنفان ، و وجد كل صنف مؤيدين له ، و أوقعوا أنفسهم بالتهلكة دون أن يشعروا ، نسأل الله العافية ، و الحق

الذي لا يحتاج إلى تلفيق و كذب من أجل البرهان على صحته و عظمته لأنه حق لا مرية فيه ، و لابد أن يظهر فضل أبي حنيفة و يعرفه أهله دون النظر للصنفين ، لأن هذين الصنفين الذين أفرطو في أبي حنيفة حباً و تعصباً ، أو حسداً و بعضاً ، فإنهما قد شذا عن طريقة الرسول و لا أرى مبروراً لما فعلوه ، فإن أبا حنيفة إمام ثبتت روايته و عدالته بشهادة الأئمة العظام الموثوق بشهادتهم و دينهم ، و هو الإمام الذي سلك مسلك الصالحين فأصبح كالنور في عصره و بعده ، و علماً لأهل التقي و الصلاح و الزهد ، فهو القوي بصلا حه و علمه فلا يحتاج لأن القوي ببالضعيف و الواهي ، فقد توواتررت مراققبهه الحميدة الصالحة على ألسنة العلماء و أهل الوررع و الفقه ، و أنه أول من صنف العلم و بوبه و

رتبه رحمه الله ، فلذلك لا يتأثر ذلك الجبل الراسخ بذبذابات هواء ضعيف خفيف ، و نخلص بنتيجة أكدهما الأئمة كما رأينا أن أبا حنيفة رحمه الله تابعي لقي عدداً ممن صحب رسول الله و على الأغلب أنه روى عنه ، فرضي الله عنه و أرضاه و رزقنا حسن الإقتداء و الإتباع لسلفنا الصالح مع الأدب معهم و حسن ذكر سيرتهم ، و الله الموفق للصواب .

تلامذته و الآخذين عنه رحمه الله : **فقد تحذر إحصاء عدد تلامذته و الآخرين عنه كما تعذر إحصاء مشايخه ، فإنه ما ظهر إلى أبي حنيفة من الأصحاب و التلاميذ لم يكن لغيره من الأئمو السابقين أو المعاصرين أو المتأخرين ، فقد انتفع به جميع الناس و بصحبه من بعده ، فقد كانت له مدرسة و كان طلابها أئمة العصر و أساتذة من بعده .**

و أقتصر على ذكر خلاصتهم ، فقد أخذ عنه تلميذه أبو يوسف يعقوب الذي أصبح قاضياً في عهد هارون الرشيد ، و الإمام محمد بن الحسن الشيباني الذي لقن الإمام الشافعي جميع علم أبي حنيفة ، و هذان التلميذان لأبي حنيفة أساتذة العلماء من بعده ، خلد التناريخ اسمها مقروناً باسم أبي حنيفة ، يقول عبد الحليم الجندي في كتابه " أبو حنيفة بطل الحرية " : هذان هما أبو يوسف و محمد صاحبا أبي حنيفة ، يجري اسمهما في التاريخ على أنهما صاحبان (1) ، ثم ويقول ثانيةً : و قف رجل على الشافعي فسأله عن مسألة فأجابه ، فقال له : يا أبا عبد الله خالفك الفقهاء . ؟

قال : و هل رأيت فقيهاً قط إلا أن تكون رأيت محمد بن الحسن فإنه كان يملأ العين و القلب ، وما رأيت مبدناً قط أذكى من محمد بن الحسن ، وقال فيه : وكان محمد إذا أخذ في مسألة كأنه قرآن ينزل و لا يقدم حرفاً و لا يؤخر .

وقال أيضاً : ليس لأحد عليَّ منّةٍ في العلم ما لمحمدٍ عليَّ .

وقد قرأ الشافعي كتب محمد ، كما سنرى في دراسة حياة الشافعي رحمه الله .

ومحمد هذا تلميذ أبي حنيفة وصاحبه ، فقد نهل من مالك بن أنس رحمه الله ، و نهل منه الشافعي ، وتلقى الإمام أحمد بن حنبل من الشافعي ، فتتلاقى عنده المذاهب الأربعة ، ويروي علومه فيرتوي منها الأئمة الفقهاء والناس جميعاً .

وأما أبو يوسف رحمه الله ، فقد كان صنو الإمام محمد ، فقد حضر عليه الإمام أحمد بن حنبل في صغره ، واستفاد منه خلق كثير ، وكان من أجل أصحابه و تلامذته . و تلامذته الإمام زفر بن الهذيل الذي يغربل الأحاديث غربلةً ، و يأتي بالدليل من غير حشو . و هذا الحسن بن زياد اللؤلؤي تلميذ أبي حنيفة ، ثم تتلمذ بعد وفاة الإمام على تلميذيه أبي يوسف ومحمد ، و اقتدى بمحمد وكتب : " المجرد " لأبي حنيفة و " أدب القاضي " ، و " النفقات " ، و " الفرائض " و " الوصايا " ، و " الخصال " (2) .

وأما ابنه حماد فقد أخذ علم أبيه ، فأحسن الإمام تربيته و تهذيبه بعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد تولى قضاء الكوفة ، وبغداد كلها ، والبصرة ، و تخرج ابنه اسماعيل عليه ، وتعلم علم جده أبي حنيفة من أبيه ، ومن تلاميد جده كأبي يوسف والحسن بن زياد .

وتولى اسماعيل حفيد أبي حنيفة القضاء للجانب الشرعي .

وأما الأخوان : مندل وحبان ، فقد كان لهما شأن عظيم .

و يحيى بن زكريا كان قاضياً على المدائن .
ومن تلاميذه البارزين عبد الله بن المبارك (صاحب كتب الزهد والرقائق) وهو العالم المحدث الفقيه الزاهد الذي أصبح إماماً في الفقه والحديث ، وبطلاً في المعارك ، و هو أول من دون الحديث بخراسان ، و يعتبر من كبار أئمة الحديث ، و هو أكثر تلامذة الإمام روايةً للإسناد ، و له كتاب الزهد و " الرقائق " و غيره من الكتب .
وأما القاسم بن معن الذي تولى قضاء الكوفة بعد شريك ، حسبةً لله من غير أجر .
وتلميذه حفص بن غياث الذي تولى للرشيد قضاء الكوفة ثلاثة عشر عاماً ، وقضاء بغداد عامين .
و هذا أسد بن عمر البجلي الذي يروي عنه الإمام أحمد بن حنبل لعدالته و علمه بالحديث ، وقيل : إنه تزوج بنت الرشيد .
وهذا علي بن مسهر الذي تولى قضاء الكوفة .
و أيضاً داود الطائي الزاهد العلبد الذي انقطع عن الدنيا و اتجه للآخرة عبادةً و زهداً (1) .
هذه مجموعة كريمة من خلاصة العلماء والفقهاء في الأمة الإسلامية ، ممن أخذ عن أبي حنيفة رحمهم الله ، و تلقى عليه العلم و حفظوا منه ، و لازموا مجلسه وكتبوا عنه ، ولهم الأثر الكبير في نشر علمه ، وفقهه في الآفاق ، وهم ممن حفظ الله بهم فقه شريعته السمحة رحمه الله و رحمهم .

منزله رحمه الله عند الأئمة :

إن ما اتصف به الإمام من الأخلاق و التقوى و الورع ، جعل كبار أئمة الأمة الإسلامية من محدثين و فقهاء يذكرون فضله و يثنون عليه بالخير ، حتى قيل للقاسم بن معن بن عبد الحمن بن عبد الله بن مسعود : ترضى أن تكون من غلمان أبي حنيفة ؟ قال : ما جلس الناس إلى أحد أنفع من مجالسة أبي حنيفة (1) .

فقد كانت مجالسه علم و ذكاء حتى حدث الإمام محمد بن إدريس الشافعي فقال : قيل لمالك بن أنس : هل رأيت أبا حنيفة ؟ قال : نعم ! رأيت رجلاً لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته (2) ، و هذا ابن جريج حين علم بموت أبي حنيفة : استرجع و توجع ، و قال : أي علم ذهب ، و عن أبي غسان أنه قال : سمعت اسرائيل يقول : كان نعم الرجل النعمان ما كان أحفظه لكل حديث فيه فقه ، و أشد فحصه عنه ، و أعلمه بما فيه من الفقه . (3) .

لقد زكى أبو حنيفة بما حمل من فقه الحديث ، و إذا علم حديثاً أكثر فيه في معرفة طرقه و متى قاله و المناسبة التي قيل فيها الحديث ، ثم فنده و محصه و استنبط منه الأحكام حسب المناسبة ، و معرفته بالمتقدم و المتأخر من الحديث و الرواية عنه ، و لهذا قال تلميذه الذي صحبه سفراً و حضراً و

إقامةً ، و أخذ عنه علمه و دينه ، و هو أبو يوسف : ما رأيت أحداً أعلم بتفسير الحديث و مواضع النكت التي فيها الفقه من أبي حنيفة ، و قال : ما خالفت أبا حنيفة في شيء فتدربته إلا رأيت مذهبه الذي ذهب إليه أنجي في الآخرة ، و كنت ربما ملت إلى الحديث ، و كان هو أبصر بالحديث الصحيح مني و قال : إني لأدعوا لأبي حنيفة قبل أبوي ، و لقد سمعت أبا حنيفة يقول : إني لأدعوا لحماد مع أبوي .

وقال الأعمش يوماً لأبي يوسف : كيف ترك صاحبك أبو حنيفة قول عبد الله : عتق الأمة طلاقها ؟ ، قال تركه لحديثك الذي حدثته عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة أن بريرة حين أعتقت خيرت . قال الأعمش : إن أبا حنيفة لفطن ، و أعجبه ما أخذ به أبو حنيفة (1) .

وهكذا جعل رحمه الله سنة رسول الله و حديثه أساساً في استنباط الأحكام ، فإذا علم حديثاً صحيحاً عن رسول الله اتبعه و ترك ما سواه من قول أو رأي مهما كان مصدره ، و قد صح أنه كان لا يأخذ إلا ما صح عن رسول الله و كان فعله أو قوله ، ة هذا دليل فقهه و صحة أحكامه و أرجحيتها على غيرها ، وقد شهد بذالك أبو مطيع الحكم بن عبد الله ، فقال محمد بن الفضل الزاهد البلخي : سمعت أبو الحكم بن عبد الله يقول : ما رأيت صاحب حديث أفقه من سفيان الثوري و كان أبو حنيفة أفقه منه (2) .

وكذا و افقه و شهد لأبي حنيفه أبو خالد يزيد بن هارون فيقول الحسن بن علي : سمعت يزيد بن هارون وقد سأله إنسان فقال : يا أبا خالد ! من أفقه من رأيت ؟ قال : أبو حنيفه ، قال الحسن : و لقد قلت لأبي عاصم - يعني النبيل - : أبو حنيفه أفقه من سفيان ؟ .

قال : عبد أبي حنيفه أفقه من سفيان (1) .

وليس المراد التنقيص من مرنبة سفيان رحمه الله ، بل المراد بيان منزلة الإمام من أقرانه ومعاصريه ، فقد كان رحمه الله أفقههم وعلمهم بالسنة و كيفية الاستدلال بها ، و هذا شأن الفقيه الذي يأخذ الحديث ، وهو عارف به و بأحواله ، و قد حاول كثير من المحدثين معرفة فضله و علمه على معاصريه ممن بلغ منزلة الاجتهاد ، و ههذا سجاد يقول : دخلت على يزيد بن هارون أنا و أبو مسلم المستملي و هو نازل ببغداد على المنصور بن المهدي ، فصعدنا إلى غرفة هو فيها ، فقال له أبو مسلم : ما تقل يا أبا خالد في أبي حنيفة و النظر في كتبه ؟ قال : انظروا فيها إن كنتم تريدون أن تفقهوا ، فإني ما رأيت أحداً من الفقهاء يكره النظر في قوله ، و قد احتال الثوري في كتاب الرهن حتى نسخه (2) .

فأبو حنيفة رحمه الله على هذا الجانب العظيم من العلم و الفقه الذي وصف به من كبار الأئمة و المحدثين و الذين عاصروا من عاصره و اطلعوا من علمه و حياته .

وهذا الإمام الحجة محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله يقول : الناس عيال على أبي حنيفة في الفقه (1) ، وقال : أيضاً ما رأيت أفقه من أبي حنيفة (2)
وقال مكي بن إبراهيم : كان أبو حنيفة أعلم الناس (3) .
ثم قال أبو عبد الله الكاتب : سمعت ابن داود الخريبي (4) يقول :
يجب على أهل الإسلام أن يدعوا الله لأبي حنيفة في صلواتهم .
قال : و ذكر حفظه عليهم السنن و الفقه () .
و إن الباحث ليجد ما لا يحصى من الأقوال التي انهالت في الثناء على أبي حنيفة رحمه الله ، و قد اقتصرنا على ما أثبتناه اختصاراً على ماذكره صاحب " الطبقات السنية في تراجم الحنفية " ، و استعنا بغيره من المراجع بعد الرجوع إلى " تاريخ بغداد " و " العبر في خبر من غبر " للذهبي و " الخيرات الحسان " و من المراجع .

من مناقبه رحمه الله تعالى :

أخرج البيهقي عن يحيى بن ضريس قال : شهدت سفيان وأتاه رجل فقال : ما تنقم على أبي حنيفة ؟ قال : و ما له ؟ قد سمعته يقول : آخذ بكتاب الله ، فإن لم أجد ، فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن لم أجد في كتاب الله و لا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخذي بقول أصحابه

رضي الله عنهم ، أخذت من شئت منهم ، وأدع من شئت منهم ، ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم ،
فأما إذا انتهى الأمر إلى إبراهيم والشعبي وابن سيرين والحسن وعطاء وابن المسيب ـ وعد رجلاً ـ فقوم اجتهدوا فأجتهد كما اجتهدوا (1) .

هذه أصول أخذها أبا حنيفة رحمه الله في أقواله و أفعاله و لا يخرج عنها ، بل اعتمد عليها في استنباط الأحكام و حل المسائل التي أخذها عنه تلامذته ، ثم تبعهم الخلف إلى يومنا هذا ، و كان رحمه الله شديد الخوف من الله والحذر من الشبهات .
فقد وصِفَ بالورع والتقوى فقال : يزيد بن هارون : ما رأيت أورع و لا أعقل من أبي حنيفة (2)

فمن رجاحة عقله شدة ورعه و حفظه للأمانة و خوفه من الله البر الرحيم ، فقد كان له شريك في التجارة اسمه حفص بن عبد الرحمن ، و كان أبو حنيفة يجهز عليه ، فدفع إليه دفعةً متاعاً ، وأعلمه أن في ثوب كذا عيباً ، فإذا بعته فبين ، فباع حفص المتاع ، ونسي أن يبين العيب ولم يعلم ممن باعه ، فلما علم أبو حنيفة بذلك تصدق بثمن المتاع كله (3) .

فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، وهذا أبو حنيفة يستبرئ لدينه و عرضه من الشبهات حتى تصدق بجميع الثمن من أجل أن يحفظ نفسه من مال دخله شبهة .

ثم ذُكِرَ من أمانته و زهده ، قال الحسن بن صالح : كان أبو حنيفة شديد الورع هائباً من الحرام ، تاركاً لكثير من الحلال مخافة الشبهة ، ما رأيت فقيهاً قط أشد صيانةً منه لنفسه ولعلمه ، وكان جهازه كله إلى قبره (1)

ومن أمانته أن إمرأة جاءت إليه تريد ثوب خز ، فقال جعفر بن عون العمري : أتت امرأةٌ أبا حنيفة تطلب منه ثوب خز ، فأخرج لها ثوباً ، قالت : إني امرأة ضعيفة و إنها أمانة فبعني هذا الثوب بما يقوم عليك فقال : خذيه بأربعة دراهم ، قالت : لا تسخر بي و أنا ع جوز كبيرة ، قال : إني اشتريت ثوبين فبعت أحدهما برأس المال إلا أربعة دراهم و بقي هذا يقوم علي بأربعة دراهم (2) .

وقد اشتد خوفه من الله عز و جل فواصل العبادة لله ليلاً و نهاراً ، يصوم النهار ويقوم الليل .

ويؤيد ما ذكرنا قول مسعر : رأيته يصلي الغداة ثم يجلس للناس في العلم إلى أن يصلي الظهر ، ثم يجلس إلى العصر ثم إلى المغرب ثم إلى العشاء ، فقلت في نفسي : متى يتفرغ هذا للعبادة لأ تعاهدنه ؟

فلما هدأ الناس خرج إلى المسجد كأنه عروس فانتصب للصلاة إلى الفجر ، ثم دخل و لبس ثيابه و خرج لصلاة الصبح ففعل

كما فعل قبل ، فقلت في نفسي : إن الرجل ينشط الليلة لأ تعاهدنه ، فلما هدأ الناس خرج وفعل كفعله قبل ليله و يومه حتى إذا صلى العشاء قلت : إن الرجل قد ينشط الليلتين لأ تعاهدنه ، ففعل كفعله قبل ، فقلت : لألزمه إلى أن يموت أو أموت ، فقال : ما رأيته بالنهار مفطراً و لا بالليل نائماً ، و كان يغفوا قبل الظهر غفوةً خفيفةً ، و قال شريك : اكتب معه سنةً فما رأيته وضع جبينه على الفراش (1) .

وقال يزيد بن الليث : وكان أبو حنيفة من الأخيار قرأ الإمام : ((إذا زلزلت الأرض . . .))

و أبو حنيفة خلفه ، فلما فرغ نظرت إليه فإذا هو جالس يتفكر ويتنفس ، فقمت لئلا يشتغل قلبه ، و تركت القنديل و زيته قليل ، ثم جئت و قد طلع الفجر و هو قائم و قد أخذ بلحية نفسه و هو يقول : يا من يجزي بمثقال ذرة خيراً خيراً ، و يا من يجزي بمثقال ذرة شراً شراً ، أجر النعمان عندك من النار و ما يقرب منها ، و أدخله في سعة رحمتك ، قال : فأتيت فإذا القنديل يزهو وهو قائم . فلما دخلت ، قال لي : تريد أن تأخذ القنديل ؟ .

قلت : قد أذنت لصلاة الغداة ، قال : اكتم ما رأيت ، وركع ركعتي الفجر ، وجلس حتى أقيمت صلاة الغداة (الفجر) وصلى معنا صلاة الغداة على وضوء أول الليل (2) .

وقال خارجة : ختم القرآن في ركعة داخل الكعبة أربعة ، وعد منهم أبا حنيفة .

ويذكر لنا أبو يوسف ـ رحمه الله ـ أنه كان مع شيخه أبي خنيفة فإذا به سمع الصبيان يصيحون : هذا أبو حنيفة الذي لا ينام الليل ، فقال لي : يا أبا يوسف ! أما ترى ما يقوله هؤلاء الصبيان ؟ فلله على أن لا أضع جبيني بفراش حتى ألقى الله تعالى .

فكان الله رحمه يقوم الليل كله حتى توفاه الله إلى رحمته ، و بجانب هذه العبادة والورع كان رحمه الله حجةً في المنطق و الفهم الصحيح للسؤال ، و يجيب عنه بسرعة ، و كان الجواب يخرج من كمه .

وروي أن أبا يوسف مرض فزاره أبو حنيفة وقال : لأن مات هذا الغلام لم يخلفه أحد على وجه الأرض .

فلما عوفي أبو يوسف أُعْجِبَ ، وعَقَدَ لنفسه مجلساً في الفقه وانصرفت و جوه الناس إليه ، فلما بلغ أبا حنيفة ذلك قال لبعض من عنده : إذهب إلى مجلس يعقوب ، وقل له : ما تقول في قصار دفع له رجل ثوباً ليقصره بدرهمين ، ثم طلب ثوبه فأنكره له ، ثم عاد له وطلبه فدفعه مقصوراً ، أله أجرة ؟ فإن قال : نعم ، قل له : أخطأت ، أو : لا ، قل له : أخطأت ، فسار

الرجل إليه فسأله فقال : نعم فله ، فقال له : أخطأت ، فنظر ساعة فقال : لا . فقال : أخطأت ، فقدم من ساعته لأبي حنيفة فلما رآه قال : ما جاء بك إلا القصار ، قال : سبحان الله من قعد يفتي الناس وعقد لنفسه مجلساً يتكلم في دين الله تعالى ، وهذا قدره لا يحسن أن يجيب في مسألة من الإجارات . فقال : علمني ، قال : إن كان قصره بعد ما غصبه فلا أجرة له ، لأنه إنما قصره لنفسه ، أو قبل غصبه فله الأجرة ، لأنه قصره لصاحبه .

وقد ورد أن رجلاً قال لامرأة مختلة ـ مجنونة ـ شيئاً ، فقالت له :

يا ابن الزانيين ، فَشُكِيَت إلى ابن أبي ليلى ، فحدها حدين في المسجد قائمةً ، فقال أبو حنيفة : أخطأ من ستة أوجه :

1 ـ أقام الحد على المجنونة ، و المجنونة لا حد عليها .

2 ـ و أقام عليها الحد في المسجد ، و لا تقام الحدود في المساجد .

3 ـ و ضربها قائمة ، و النساء يضربن قعوداً .

4 ـ وأقام عليها حدين ، و لو أن رجلاً قذف قوماً ما كان عليه إلا حد واحد .

5 ـ وضربها و الأبوان غائبان و لا يكون ذلك إلا بمحضرهما ، لأنه الحد لا يكون إلا لمن يطلبه .

6 - و جمع بين حدين في مقام واحد ، و من وجب عليه حدان لم يقم
عليه أحدهما حتى يجف الآخر ، ثم يضرب الحد الثاني .

فبلغ ذلك ابن أبي ليلى فذهب إلى الأمير فشكاه ، فحجز الأمير على أبي حنيفة أن يفتي ، ثم وردت مسائل لعيسى بن موسى فسأل عنها أبا حنيفة ، فأجاب فيها فاستحسن عيسى كل ما جاء به و أذن له فقعد في مجلسه (1) .
وذات يوم حاول من يعاديه أن يوقع أبا حنيفة أما المنصور فقال : أقتله عند المنصور ، ثم سأله بين يديه فقال : يا أبا حنيفة ! إن الرجل منا يدعوه أمير المؤمنين فيأمره بضرب عنق الرجل لا يدري ما هو أيسعه أن يضرب عنقه ؟ قال (أبو حنيفة) : أمير المؤمنين يأمره الحق أو الباطل ؟ . قال : بالحق ، قال : أنفذ الحق حيث كان ولا تسأل عنه ، ثم قال أبو حنيفة : إن هذا أراد أن يوثقني فربطه (2) .
وكان أبو حنيفة قد تزوج غير أم حماد زوجته ، وعلمت بذلك فقالت : لا بد أن تطلقها ثلاثاً و إلاَّ لا أصاحِبُكَ ، فاحتال و أمر الجديدة له أن تأتيه عندها ، و تسأله أيحل للمرأة أن تهجر زوجها ، فدخلت وسألته عن ذلك ، فقالت أم حماد : لا بد إلا أن تطلق الجديدة ، فقال : كل امرأة لي خارج هذه الدار فهي طالق ثلاثاً ، فرضيت و لم تطلق الجديدة (3) .

وهكذا كان أبو آيةً في فكره وعلمه وفقهه ، و بجانب ذلك كان في غاية الزهد و الورع ، وقال شقيق : كنت معه في طريق فرآه رجل فاختبأ منه ، و أخذني من طريق آخر فصاح به فجاء إليه

، فقال له : لم عدلت عن طريقك ؟ .

قال الرجل : لك علي عشرة آلاف درهم ، وقد طال علي الوقت و عسرت فاستحييت منك ، فقال : سبحان الله ، بلغ الأمر كل هذا ، وهبته لك كله و أشهدت على نفسي ، فلا تتوار ، و اجعلني في حل مما دخل في قلبك مني ، فقال شقيق : فعلمت أنه زاهد على الحقيقة . و قال الفضيل : أبو حنيفة معروف بكثرة الفضل (1) .

وقال الشافعي : الناس عيال على أبي حنيفة في الفقه . .

وقال المزني : أبو حنيفة سيدهم .

وقال ابن المبارك لسفيان الثوري : يا أبا عبد الله ! ما أبعد أبي حنيفة عن الغيبة ، ما سمعته يغتاب عدواً له قط . فقال هو أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهبها (2) .

وكان كريماً سخياً بعيداً عن جوائز السلطان خوفاً من الشبهة فيها ، ثم إن أغلب الأمراء والحكام لا يدفعون الهدايا والجوائز إلا إذا أرادوا من المهدى إليه أن يكون تبعاً لهم ولأهوائهم ، و من هذا القبيل كان رحمه الله يبتعد عن هدية السلطان والأمراء وجوائزهم .

و الأغلب في أموال الأمراء والحكام أنها تكون من أموال الناس ، و لا يحق للحكام و للأمراء التصرف في هذه الأموال إلا للصالح العام .

وكما لا يجوز صرفها في وسائل البذخ و الترف ، و شراء نفوس مريضة تميل إليهم و توافقهم على أهوائهم ومخالفاتهم للإسلام .

ومن هذا القبيل كان أبو حنيفة ورعاً زاهداً في جوائز وهدايا الأمراء ، و يذكر ابن الحجر الهيثمي أن الحسن بن زياد - تلميذ الإمام أبي حنيفة - قال : و الله ما قبِلَ لأحدٍ مِنهم - أي الخلفاء و الأمراء - جائزةً و لا هديةً ، و وصل إليه من المنصور ثلاثون ألف درهم في دفعات ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! إني ببغداد غريب وعندي ودائع الناس وليس عندي موضع فاجعلها في بيت المال ، فأجابه ، فلما مات أخرجت ودائع الناس من بيت المال فرأوها ، فقال المنصور : خدعنا (1) .

ويؤيد ما ذكرنا من كراهته هدية الأمراء خوفِ أن يدخل عليه شيءٌ في دينه ، قال مصعب : أجازه المنصور بعشرة الآف درهم ، فخشي أنه إن ردها غضب ، و إن قبلها دخل عليه في دينه ما يكرهه ، فشاروني فقلت : هذا مال عظيم في عينه ، إذا دعيت لقبضه فقل : لم يكن هذا أملي من أمير المؤمنين . فدعيَ لقبضِهِ ، فقال ذلك ، فبلغَ المنصور فحبس الجائزة ، فكان يكاد لا يشاور في أمره غيري (2) .

هذا زكت نفسه ، و قد أفلح من زكاها فرحمه الله .

جهره بالحق :

لقد كتب الله على أهل العلم والتقوى الابتلاء ، فأكثرهم اعتصاماً بالتقوى كان أشد ابتلاءاً ، و قد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في حديثه : ((أشد بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل)) فمن كثرت عليه الابتلاءات بسبب دينه وعقيدته فهو مشمول في هذا الحديث الشريف الذي نطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

و هذا أبو حنيفة رحمه الله الذي امتحن و ابتلى فصبر حتى أتاه اليقين ، فقد امتحن بالضرب والتهديد بالقتل و الحبس .

ففي عهد مروان بن محمد الأموي حين احتل الخوارج الكوفة بقيادة الضحاك ابن قيس الشيباني ، ودخل الضحاك ومعه جماعة على الإمام رحمه الله ، و طلب منه أن يتواب ، فقال له الإمام : مم أتوب ؟ . وأعاد عليه الضحاك الأمر بالتوبة ، فقال له الإمام : مم أتوب ؟

قال : من رضاك بالتحكيم بين علي ومعاوية رضي الله عنهما .

فقال له الإمام هل لك أن تناظرني ؟ .

قال : نعم . فقال الإمام : إذا اختلفنا فمن نجعل بيننا ؟ ..

قال : فلان . فقال له الإمام أترضى به أن يكون حكماً بيننا ؟ .

قال : نعم . فقال الإمام للضحاك : قد رضيت ، بالتحكيم ، فانقطع الضحاك (1) .
وذكر المحدث ملا على القاري رحمه الله : أنه ـ أي الإمام ـ رحمه الله استتيب مرتين ، إنما كان من الخوارج الذي كفروا علياً و كرام الصحابة (رضوان الله عليهم) وقاتلوهم .
ومرة دخل عليه وفد من الخوارج تلك الأيام و قد أشهروا سيوفهم فقالوا له : هاتان جنازتان بباب المسجد .
إما إحداهما فجنازة رجل شرب الخمر حتى كظته ـ أي خنقته ـ وخرج بها فمات .
والأخرى امرأة زنت حتى إذا أيقنت الحبل قتلت نفسها ، قال من أي الملل كانا ؟ من اليهود ؟ قالوا : لا ،

قال : فمن النصاري ؟ قالوا : لا ، قال : أفمن المجوس ؟ قالوا : لا ، قال : من أي الملل كانوا ، قالوا : من الملة التي تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده و رسوله . قال : فأخبروني عن هذه الشهادة أهي من الإيمان ثلث أو ربع أو خمس ؟ قالوا : إن الإيمان لا يكون ثلثاً ولا ربعاً ولا خمساً . قال : فكم هي من الإيمان ؟ قالوا : الإيمان كله ، قال : فما سؤالكم إياي عن قوم زعمتم و أقررتم أنهما كانا مؤمنين ؟ .

قالوا : دعنا عنك ، أمن أهل الجنة هما أم من أهل النار ؟ 0

قال : أما إذا أبيتم ، فإني أقول فيهما ما قال إبراهيم عليه السلام في قوم كانوا أعظم جرماً منهما : ((فمن نبعني فإنه مني و من عصاني فإنك غفور رحيم)) وأقول فيهما ما قال عيسى عليه السلام في قوم كانوا أعظم جرماً منهما : ((إن تعذبهم فإنهم عبادك ، و إن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الرحيم)) وأقول فيما قال نبي الله نوح عليه السلام : ((إذ قالوا : أنؤمن لك و اتبعك الأرذلون ؟ قال : وما علمي بما كانوا يعملون ، إن حسابهم إلاَّ على ربي لو تشعرون ، و ما أنا بطارد المؤمنين)) 0

وعندما سمع الخوارج هذا ألقوا السلاح (1) .

ما زال الإمام يسير وفق القرآن و السنة المطهرة ، متمسكاً بالحق و الهدي الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دون خوف لائم يلومه أو غضب ظالم يظلمه ، و لما تولى ابن هبيرة أمر الكوفة ، وكلف أبا حنيفة في القضاء ، رفض أبو حنيفة ذلك خوفاً من الله وورعاً منه في إصدار الحكم برقاب العباد ، فابتلي أشد البلاء ، و ضرب أشد الضرب ، و يؤيد ذلك ما رواه الموفق بسنده فقال : كان عمر بن هبيرة والياً على الكوفة في زمان بني أمية ، فظهرت الفتن بالعراق ، فجمع فقهاء العراق ببابه ، فيهم ابن أبي ليلى ، و ابن شبرمة ، و داود بن أبي هند ، فولي كل واحد منهم صدراً من عمله ، و

أرسل إلى أبي حنيفة فأراد أن يجعل الخاتم في يده ، و لا ينفذ كتاب إلا من تحت يد أبي حنيفة ، فامتنع أبو حنيفة ، فحلف عمر بن هبيرة إن لم يقبل أن يضربه ، فقال له هؤلاء الفقهاء : إننا نناشدك الله ألا تهلك نفسك فإنا إخوانك ، و كلنا كاره لهذا الأمر ، و لم نجد بداً من ذلك ، فقال أبو حنيفة : لو أرادني أن أعد له أبواب مسجد واسط لم أدخل في ذلك ، فكيف و هو يريد مني أن يكتب دم الرجل يضرب عنقه و أختم أنا على ذلك الكتاب ؟ فو الله لا أدخل في ذلك أبداً . فقال ابن أبي ليلى : دعوا صاحبكم ، فهو المصيب و غيره المخطئ فحسبه صاحب الشرطة ، و ضربه أياماً متتالية ، فجاء الضارب إلى ابن هبيرة و قال له : إن الرجل ميت ، فقال ابن هبيرة : قل له : تخرجنا من يميننا ؟ . فسأله فقال : لو سألوني أن أعد له أبواب المسجد ما فعلت . ثم اجتمع الضارب مع ابن هبيرة فقال : ألا من ناصح لهذا المحبوس أن يستأجلني فأوجله ، فأخبر أبو حنيفة بذلك فقال : دعوني أستشير في ذلك إخواني وأنظر في ذلك ، فأمر ابن هبيرة بتخلية سبيله ، فركب دابته و هرب إلى مكة ، و كان هذا سنة مائة وثلاثين ، و أقام بمكة حتى صارت الخلافة العباسية ، فقدم أبو حنيفة الكوفة في زمن أبي جعفر المنصور (1) .

وكان قد عذب و ضرب مائة سوط على عشرة أيام ، كل يوم عشرة أسواط في رأسه ووجهه و سائر جسده ، و هو في كلِ صابر محتسب عند الله متمسك بالحق ، حتى إذا بدت آثار

الضرب على وجهه حزن لذلك حزناً عظيماً ، خشية أن تراه أمه فتغتم لذلك ، و قد رأت أمه ذلك فعلاً ، فحزنت عليه ، و قالت له : إن علماً أوردك مثل هذا لحري أن تتركه ، فقال لها : لو أردت به الدنيا لوصلت إليها ولكن أردت أن يعلم الله أني صنت العلم ولم أعرض نفسي فيه للهلكة (1) .

حيث أن التهلكة الحقيقية هي مخالفة الشرع وضياع العلم ، فيعالج بمقامع الحديد في الآخرة والعذاب الأليم في نار جهنم ، وذلك لاتخاذه العلم وسيلة لكسب دنيوى على حساب دينه .

وقد ترفع الأئمة رحمهم والله تعالى عن هذا فكلفهم المحن الكثيرة القاسية فمنهم من قضى نحبه تحت العذاب ، و منهم من سلم و نجا بهربه و انعزاله عن هذه المواطن المهلكة 0

وكان الإمام ممن قضى نحبه و هو حافظ لدينه وعلمه مجاهد في الحق و قد رفض القضاء من هذا القبيل صيانةً للعلم وحفظاً للحق ، حتى إنه رحمه الله رد من كان وسيطاً بينه و بين ابن هبيرة بقوله : ضربة لي في الدنيا أخف من معالجة مقامع الحديد في الآخرة ، و الله لا أفعل و إن قتلني (2) .

فقد صان الإمام العلم و الحق خوفاً من أن يقع في التهلكة الحقيقية و هرب إلى مكة المكرمة كما هو واضح من كلام الموفق صاحب " المناقب " ، و لما عاد إلى الكوفة في عهد المنصور عادت له الابتلاءات و المحن ثانيةً ، فإن الأمراء

لا يتركون العلماء ينطقون بعلمهم إلا إذا كان لصالحهم و تمكين كرسيهم ، فهذا المنصور يجمع الفقهاء يستفتيهم في قتل من قام عليه ، و خالفه من أهل الموصل الذي كان قد اشترط عليهم ذلك ، أن نقضوا عهدهم بالخروج عليه .

ذكر البزازي أن أهل الموصل كانوا قد انتقضوا على المنصور ، و قد اشترط المنصور عليهم أنهم إن انتقضوا تحل دمائهم ، فجمع أبو جعفر المنصور الفقهاء و فيهم أبو حنيفة فقال : أليس أنه صح عنه عليه الصلاة و السلام قوله : ((المؤمنون عند شروطهم)) ، و أهل الموصل قد شرطوا أن لا يخرجوا علي و قد خرجوا على عاملي و قد حلت لي دماؤهم ، فقال رجل : يدك مبسوطة عليهم و ذلك مقبول فيهم ، فإن عفوت فأنت أهل العفو ، و إن عاقبت فيما يستحقون ، فقال لأبي حنيفة : ماتقول يا شيخنا ألسنا في خلافة نبوة و بيت أمان ؟ قال : إنهم شرطوا لك ما لا يملكونه ، و شرطت عليهم ما ليس لك ، لأن دم المسلم لا يحل إلا بأحد معان ثلاث ، فإن أخذتهم أخذت بما لا يحل ، و شرط الله أحق بما توفي به ،فأمرهم المنصور بالقيام فتفرقوا ، ثم دعاه فقال : يا شيخ ! القول ما قلت انصرف إلى بلادك و لا تفت الناس بما هو شين على إمامك فتبسط أيدي الخوارج .

وأشار أبي حنيفة إلى حديث رسول الله : ((لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدي ثلاث :

1 ـ النفس بالنفس . 2 ـ و الثيب الزاني .

3 ـ و المفارق بالجماعة التارك لدينه)) (1) .

و إلى الحديث الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله قال : ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، و أن محمداً رسول الله ، و يقيموا الصلاة ، و يؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم عل الله تعالى)) (1) .

فقه أبو حنيفة رحمه الله مراد رسول الله من أقواله هذه أن لا يجوز قتل من شهد بالوحدانية و لرسوله بالرسالة ، إلا بما ذكر بالحديثين السابقين ، فلهذا لم يوافق المنصور على رأيه و شروطه و نقضها دون خوف من سلطانه و سلطته أو جبروته ، و كيف و قد قال الإمام زفر رحمه الله : كان أبو حنيفة يجهر بالكلام أيام إبراهيم جهاراً شديدا فقلت له : و الله ما أنت بمنته حتى توضع الحبال في أعناقنا (2) .
وذلك حين خرج إبراهيم مع أخيه محمد بن عبد الله ـ النفس الزكية ـ على المنصور في المدينة المنورة والعراق وقد فعل بهم فعلاً و قتل بهم قتلاً حتى قضى على حركتهم بشدة و عنف ، و كان الإمام أبو حنيفة رحمه الله غير راض عن هذا و يبين ذلك في دروسه و مجالسه دون خوف لائم يلومه أو جائر يجور عليه ، واضعاً الحق نصب عينيه يسير عليه .

وفاته رحمه الله :

لقد عاهد أبو حنيفة رحمه الله ربه أنو يحفظ دينه و علمه ، و لا يلوث إيمانه بسفاسف الدنيا و النفاق للأمراء و الحكام ، بل يحفظ عهده و يخلص بالدعوة و العمل المخلص على سنة رسول الله ، فعلاً رفع صوته جهراً بالحق حتي كان ما توقع تلميذه الإمام زفر حين قال له : و الله ما أنت بمنتة حتى توضع الحبال في أعناقنا .

وكان ينقض فتاوى القضاة و أحكامها مستنداً إلى الكتاب و السنة ، مما جعل أولئك القضاة و المفتين أصحاب الأمراء والحكام أن يوقعوا بينه وبين الأمراء و الحكام ، فأوغروا صدورهم على أبي حنيفة رحمه الله ، فكان كثير منهم يكره أبا حنيفة حسداً لعلمه و لسعة فقهه وقوة حجته و ضعف حجتهم و ضيق فهمهم إذا ما قارنوا ذلك بما عند الإمام رحمه الله ، فكانوا يتحاملون عليه بغياً و حسداً .

وهذا أبو عباس الطوسي الذي كان سيء الأخلاق و الرأي في أبي حنيفة و من المتحاملين ، و أبو حنيفة يعرف ذلك منه ، روى الخطيب بسنده أن أبا العباس الطوسي سيء الرأي في أبي حنيفة ،

و كان أبو حنفية يعرف ذلك ، و دخل أبو حنيفة على أبي جعفر وكثر الناس ، فقال الطوسي : اليوم أقتل أبا حنيفة ، فأقبل عليه فقال : يا أبا حنيفة ، إن أمير المؤمنين يأمر الرجل منا بضرب عنق الرجل لا يدري ما هو ، أيسعه أن يضرب عنقه ؟ 0

فقال يا أبا عباس ! أمير المؤمنين يأمر بالحق أم بالباطل قال : بالحق 0

قال أنفذ الحق حيث كان ولا تسل عنه .

ثم قال أبو حنيفة لمن قرب منه : إن هذا أراد أن يوثقني فربطته (1) .

و قد رأيت كيف أن الإمام لا يخاف في الله لومة لائم أو جور جائر مما جعل الخليفة العباسي يحمل عليه و يقرر التخلص منه بأي طريقة ، ففكر بامتحان ولائه بعرض القضاء عليه ، إن هو قبل ذلك فقد استكانت نفسه و استسلم لسلطان المنصب ضده ، و إن هو أبي و رفض اتخذ هذا الرفض ذريعةً لتبرر حبسه و قتله ، و لكنه حين واجه أبا حنيفة برغبته و أمره بتوليته القضاء رفض الإمام ذلك على العرض بإصرار ، و أقام الحجة على المنصور ، و لجأ المنصور إلى حبسه و تعذيبه حتى لقي ربه و هو عنه راض رحمه الله .

و يذكر الخطيب أن أبا حنيفة لما كلفه المنصور بمهمة القضاء أجابه الإمام قائلاً : لا أصلح للقضاء ، فقال المنصور : كذبت ، فقال أبو حنيفة : قد حكم علي أمير المؤمنين أني لا أصلح للقضاء ، لأنه نسبني إلى الكذب فلا أصلح ، و إن كنت صادقاً فقد أخبرت أمير المؤمنين أني لا أصلح (1) . فأمر بحبسه و ضربه مائة جلدة كل يوم عشر ضربات ، و قال ابن حجر : إن المنصور طلبه إلى القضاء ، و أن يكون قضاء بلاد الإسلام من تحت أمره ، فامتنع وحلف له وغلظ عليه إن لم يفعل ليسجنن و لشددن ، و أمر أن أن يخرج كل يوم فيضرب عشرة و ينادي عليه في الأسواق ، فأخرج و ضرب ضرباً موجعاً حتى سال الدم على عقبيه ، ثم أعيد إلى الحبس و ضيق عليه (2) و قال ابن خلكان : ضرب أبو حنيفة على الدخول في القضاء فلم يقبل . قال و كان أحمد بن حنبل إذا ذكر ذلك بكى و ترحم على أبي حنيفة (3) .

و جاء في " مناقب ابن البزازي " : أنه بعد حبس و ضيق عليه مدةً كلم المنصور بعض خواصه ، فأخرج من السجن و منع من الفتوى والجلوس للناس و الخروج من المنزل ؟ فكانت تلك حالته إلى أن توفي (4) . رحمه الله .

و قد تعددت الروايات و تباينت الأقوال فيه ، و قال : أبو زهرة : و نحن نميل إلى هذه الرواية الأخيرة لأسباب عديدة يعلل بها رأيه (1) .

غير أن الموفق يروي بسنده إلى داود بن راشد الواسطي قال : كنت شاهداً في الأيام التي كان أبو حنيفة يعذب ليلي القضاء ، فكان يخرج كل يوم فيضرب عشرة أسواط ضرباً و جيعاً يؤثر في سرته أثراً واضحاً ، ثم يعاد إلى موضعه حتى ضرب مائة سوط و عشرة أسواط ، يقال له كل يوم : اقبل ، فيقول : لا أصلح ، و جعل يبكي حين تتابع عليه الضرب ، و سمعته يقول خفياً : اللهم ادفع عني شرهم بقدرتك ، فلما أبى عليهم دسوا إليه السم و قتلوه (2) ، و أيد هذا الذهبي في " العبر " فقال : إن المنصور سقاه السم فمات شهيداً رحمه الله (3) .

و روى الموفق أنه جاء في "كتاب المتفجعين" بالسند إلى أبي حيان الزيادي قال : بلغني أن أبا حنيفة رحمه الله تعالى سجد فخرجت نفسه و هو ساجد (4) .

ثم يروي الموفق بسنده إلى عبد الله بن واقد غسل الحسن بن عمارة أبا حنيفة وكنت أصب الماء عليه ، فرأيت جسماً نحيفاً قد أذابه من العبادة والجهد ، فلما فرغ الحسن من غسله مدح أبا حنيفة و ذكر بعض خصاله و تكلم بكلمات أبكى الجميع ، فلما رفعت جنازته لم أر باكياً أكثر من يومئذ (5) .

و قال الخطيب : و كانت وفاته في رجب في هذه السنة (1) يعني مائة و خمسين للسنة النبوية ، و كاد يكون اتفاق العلماء على أنه توفي سنة 150 ه إجماعاً ، فرضي الله عنه و أرضاه .

علمه رحمه الله تعالى :

لقد صنف في هذا البحث كتب كثيرة ، و بحث في كثير من متب المناقب و المقدمات من قبل كبار الأئمة و الحفاظ و العلماء والجهابذة الأفاضل ، و إني أسجل في هذه الصفحات القليلة نبذةً كريمةً من الشواهد على علمه ، فكان رحمه الله علماً من كبار أعلام الإسلام ، و فقيهاً نادر المثيل ، و قد شهد بذلك الإمام الشافعي بقوله : الناس عيال على أبي حنيفة في الفقه .

و قد أخذ أبو حنيفة الحديث الشريف عن أصحاب عمر عن عمر ، و عن أصحاب علي عن علي ، و عهن أصحاب ابن مسعود عن ابن مسعود ، و عن أصحاب ابن عباس عن ابن عباس رضي الله عنهما ، و كان ـ رحمه الله ـ يختلف إلى كبار التابعين كالأعمش ، فقد أخذ عنه الحديث ، و

عن حماد بن سليمان و إبراهيم النخعي ، و اختلف إلى الليث ابن سعد و إلى عدد كبير من المحدثين ، و ذكرنا ذلك بشيء من التفصيل في بحث سيوخه فارحع إليه .

ثم جعل الإمام مدرسته منطلقاً لتلامذته ، يبحثون العلم و ينلقشون الفقه ، فاعتنى بهم حتى نبغوا جميعاً ، حتى أصبحوا قضاةً و مفتين ، ختى قال عبد الله بن المبارك : إذا لم نجد أثراً عن رسول الله و أصحابه رضي الله عنهم ليس أحد أحق أن يقتدي به من أبي حنيفة ، فقد كان إماماً الثقة و لا يأخذ من حديث رسول الله إلا ما صح عنه و آخر فعله ، و قد قال سفيان الثوري : كان أبو حنيفة شديد الأخذ للعلم ، ذاباً عنمحارم الله أن تستحل ، يأخذ بما صح عنده من الأحاديث التي كان يحملها بالثقات و بالآخرة من فعل رسول الله ، و بما أدرك عليه علماء الكوفة ، ثم شنع عليه قوم يغفر الله لنا و لهم (1) .

و سفيان الثوري رحمه الله إمام و محدث مشهود له بالدين و الورع و التقوى ، و هو من يحق له أن يقوم الرجال و يزكيهم ، فقد كان رحمه الله معاصراً لأبي حنيفة و يعرفه معرفةً قويةً ، حيث شهد مجالسه العلمية و ناقشة العلم و عاين ما يتصف به من ورع و تقوى ، و شهد بهذه الشهادة التي أراد بها الحق و الصواب ، و لا يعرف لأهل الفضل مكانتهم إلا أهل الفضل .

فقد كان أبو حنيفة رحمه الله إماماً ثقةً ، و لا يكون الرجل إماماً إلا بعد أن يجمع علم القرآن و السنة و أقوال

الصحابة ، و اجتهادات التابعين ، ثم إن ما قاله الثوري رحمه الله فقد قاله بعد التأكد بنفسه عن طريقة أبي حنيفة في أخذه الحديث ، و كان أبو حنيفة لا يأخذ إلا ما صح له من حديث رسول الله ، و ذكر طريقته في أخذه عن الثقات ، فقد اشترط الإمام أشد الشروط في أصول مذهبه و بنائه بناءً سليماً و الكتاب و السنة المطهرة و أقوال الصحابة ، و ناقش أقوال التابعين و اجتهاداتهم ، ورد ذلك إلى الدليل ، ثم تناول العلم و صنفه أبواباً و فصولاً ، و كان أول من بوب العلم و فضله ، كما يظهر لنا إن شاء الله .

و يذكر الوفق عن عبد الله بن المبارك أنه قال : قدمت الشام على الأوزاعي فرأيته ببيروت فقال لي : يا خراساني ! من هذا المبتدع الذي خرج بالكوفة يكني أبا حنيفة ؟ فرجعت إلى بيتي فرجعت إلى كتب أبي حنيفة ، فأخرجت منها مسائل من جياد المسائل ، و بقيت في ذلك ثلاثة أيام ، فجئته بعد الثالث و هو مؤذن مسجدهم و إمامهم ، و الكتاب في يدي : فقال : أي شيء في هذا الكتاب ؟ فناولته ، فنظر في مسألة كتبت فيها : قال النعمان بن ثابت ، فما زال ـ أي الأوزاعي ـ قائماً بعد ما أذن حتى قرأ صدراً منه ، ثم وضع الكتاب في كمه ثم أقام و صلى ثم أتى عليها ، فقال لي يا خراسان من النعمان بن ثابت ؟ قلت شيخ لقيته بالعراق ، فقال هذا نبيل من المشايخ ، ، اذهب فاستكثر منه ، قلت : هذا أبو حنيفة الذي نهيت عنه . (1)

ومضيت الأيام و جاء موسم الحج و شائت الأقدار أن يجتمع الأوزاعي بأبي حنيفة رحمهما الله ، فقال عبد الله بن المبارك : ثم التقي أبو حنيفة بالأوزاعي بمكة و كان بينهما اجتماع ، فرأيته يجاري أبا حنيفة في تلك المسائل التي كانت في الرقعة ، فرأيت أبا حنيفة يكشف في تلك المسائل بأكثر مما كتبت عنه ووفور عقله ، و أستغفر الله في غلط ظاهر ، إلزم الرجل فإنه بخلاف ما بالغني عنه (2) .

هكذا تاب الأوزاعي لما وجد من سعة علم الإمام أبي حنيفة رحمه الله ، و أكد لتلميذه ابن المبارك على ملازمته و الإستفادة منه ، إنه الإنصاف و الحق ، و لا يعرف الإنصاف و الحق إلا من كان على حق و هدى من ربه .

مصنفاته رحمه الله :

إن من ملأطباق الأرض علماً و فقهاً ، و احتل صدارة العلم و الفتوى في أوسع دولتين و أمد سلطاناً و نفوذاً ، دولة بني عباس ـ العباسيون ـ و دولة بني عثمان ـ العثمانيون ـ و ما زالت في يومنا هذا بعض المدن و العواصم في بلاد الإسلام يتمتع أتباع أبي حنيفة بالصدارة للإفتناء و المشيخة للعلم و العلماء ، و لو نظر المسلم اليوم إلى بلاد الهند التي تضم أكثر من مائة و عشرين مليوناً مسلماً ، و باكستان

التي تزيد عنثمانين مليون مسلم ، و تركيا التي تزيد عن أربعين مليون مسلم ، و اندونيسيا التي تزيد عن مائة مليون مسلم ، و الدول التي تحيط بالهند و اندونيسيا و أفغانستان و بلاد الشام و العراق ، مازالت منازل الإفتاء و المراكز العلمية لأتباع هذا الإمام رحمه الله ، هذا ما عدا الدول التي تخضع أقليتها المسلمة لغير المسلمين ، فقد اتخذ أكبر نسبة في العالم أتباع أبي حنيفة قادةً لفكرهم العلمي .

لحري أن تكون له مصنفات من أمهات الكتب العلمية مصدراً و أساساً علمياً يعتمد عليها على مر الأيام و الأزمنة ، وتبين أنه رحمه الله أول من بدأ بتصنيف العلم إلى أبواب ، و ترتيبه إلى ما هو أعم فائدةً و أسهل تناولاً .

و قد قال صاحب " معجم المصنفين " (1) : أعلم أن تصانيف الإمام في علم الكلام و الفقه و الحديث و الصرف عديدة فمما ذكروه : كتاب الصلاة ، كتاب المناسك ، كتاب الرهن ، كتاب الشروط ، كتاب الفرائض ، كتاب العالم و المتعلم ، كتاب الآثار ، كتاب المقصود ، كتاب الرسالة ، كتاب في أن الله تعالى في السماء دون الأرض ، كتاب الإرجاء ، كتاب الرد على القدرية ، ـ كتاب الفقه الأكبر ـ كتاب الوصية ، كتاب الرد على الأوزاعي ، و يوجد غيرها ، و إليك التفصيل حول مصنفاته التي ذكرت مجملةً :

1 ـ كتاب الصلاة : فقد روى الشيخ أبو محمد الحارثي بسنده إلى أبي مقاتنل حفص بن مسلم يقول : أول من

وضع أبو حنيفة رحمه الله تعالى كتاب الصلاة فسمي كتاب العروس .

2 ـ و أما كتاب المناسك : و هو ما كتبه الإمام لشيخه الأغعمش ، حين أراد الأعمش الحج أرسل على ابن مسعر إلى أبي حنيفة يطلب منه أن يكتسب له بالمناسك ، فكتب ـ أبو حنيفة ـ و أعطى لعلي بن مسعر ، ثم ذهب إلى الأعمش و سلم الكتاب الذي طلبه ، و هو بذلك أول من كتب بالمناسك .

3 ـ كتاب الفرائض : قال الموفق ، أول من وضع كتاباً في الفرائض هو أول من وضع كتاباً في الشروط .

4 ـ أما كتاب الشروط : فقال الشيخ أبو عبد اللهمحمد بن يحيى الجرجاني أشتاذ القدوري : أن ما رسمه أبو حنيفة في الشروط لم يسبق إليه أحد (1) .

5 ـ كتاب العالم و المتعلم : قلت : لقد تم لي و للأخ المفضل الدكتور محمد قلعه جي تحقيق الكتاب و و كتبت فيه مقدمة عن حياة الإمام و طبع هذا الكتاب بحلب ، و قبله بمصر و يوجد منه نسخ محفوظة بالمكتبة الوقفية بحلب و يوجد في غيرها كذلك ، و هو عن أبي مقاتل ، و يبحث في العقائد ، فقد وضعه الإمام على طريقة السؤال و الجواب بأسلوب رائع و و مقنع و أوله : الحمد لله الحي الذي لا يموت و قد ذكره الجلبي في كشف الظنون (2) و قال البزاز الكردي : و كتاب العالم و المتعلم ، له أي لأبي حنفية لأنه صرح فيه بأكثر قواعد أهل السنة و الجماعة (1) .

و إليك نموذجاً من كتاب العالم و المتعلم من نسخة محققة :

قال المتعلم رحمه الله :

جزاك الله عني الجنة ، فلنعم المعلم أنت ، فتحت لي باباً من العلم لم أهتد له ، و قد بنيت لي من أقاويل هؤلاء القوم ما لا أبالي أن لا أزداد بصيرةً في ضعف قلولهم و عجز رأيهم و لكن .

أخبرني بالرد على الصنف الثاني في قولهم : إن دين الله كثير ، و هو العمل بجميع ما اقترض الله ، و الكف عن جميع ما حرع الله .

قال العالم :

ألست تعلم أن الرسل صلوات الله عليهم لم يكون على أديان مختلفة ؟ و لم يكن كل رسول منهم يأمر قومه بترك دين الرسول الذي كان قبله ، لأن دينهم كان واحداً (2) . و كان كل رسول يدعوا إلى شريعة نفسه و ينهى عن شريعة الرسول الذي قبله (1) لأن شرائعهم كثيرة مختلفة (2) ، و لذلك قال

الله تعالى : ((لكل جعلنا منكم شرعةً و منهاجاً و لو شاء الله و لو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً)) (3) ، أي شريعة واحدةً و أوصاهم جميعاً بإقامة الدين و هو التوحيد ، و أن لا يتفرقوا فيه

، لأنه جعل دينهم ديناً واحداً ، فقال : ((شرع لكم من الدين ما أوصى به نوحاً و الذي أوحينا إليك ، و ما وصينا به إبراهيم و موسى و عيسى أن أقيموا الدين و لا تفروا فيه)) (4) .

و قال : ((و ما أرسلنا من قبلك من رسوزل إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدوني)) (5) و قال جل و علا : ((لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم)) (7) (أي لا تبديل لدينه) (7) ، فالدين لم يبدل ، و لم يحول و لم يغير ، و الشرائع قد غيرت و بدلت ، لأنه رب شيء قد كان حلالاً لأناس (8) قد حرمه الله عز و جل على آخرين ، و رب أمر أمر الله به أناساً و نهى عنه أخرين ، فالشرائع كثيرة مختلفة ، و الشرائع هي الفرائض ، مع أنه لو كان العمل بجميع ما أمر الله به ، والكف عن جميع ما نهى الله عنه ، دينه ، لكان كل من ترك شيئاً مما أمر الله تعالى به ، أو ركب شيئاً مما نهى الله عنه تاركاً لدينه ، و لكان كافراً ، و إذا صار كافر أذهب الذي بينه و بين المؤمنة (1) من المناكحة ، و الموارثة ، و اتباع الجنائز ، و أكل الذبائح ، و أشباه هذا ، لأن الله تبارك و تعالى أوجب ذلك كله بين المؤمنين من أجل الإيمان الذي به حرم الله تعالى دمائهم و أموالهم إلا بحث (2) ، و إنما أمر الله تعالى المؤمنين بالفرائض بعد ما أقروا له بالدين فقال سبحانه : ((قل لعبادي الذين أمنوا يقيموا الصلاة)) (3) .

و قال تعالى : ((يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام)) (4) و قال : ((يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم

القصاص)) (5) ، و قال : ((يا لأيها الذين آمنوا اذكروا الله)) (6) و أشباه هذا .

فلو كانت هذه الفرائض من الإيمان لم يسمهم مؤمنين حتىيعلموا بها ، و قد فضل اللع عز وجل الإيمان من العمل فقال تعالى : ((الذين آمنوا و عملوا الصالحات)) (7) و قال : ((بلى من أسلم وجهه لله و هو محسن)) (8) أي مع إيمانه و قال : ((و من أراد الآخرة و سعى لها سعيها و هو مؤمن)) (9) فجعل الإيمان غير العمل .

فالمؤمنون من قبل غيمانهم بالله يصلون و يصومون و يحجون و يذكرون الله ، و ليس من قبل صلاتهم و صومهم و حجهم بالله يؤمنون ، فلذلك أنهم أمنوا ثم عملوا ، فكان عملهم بالفرائض من قبل إيمانهن بالله ، و لم يكن إيمانهم من قبل عملهم بالفرائض .

و مثل ذلك : أن الرجل إذا كان عليه الدين و هو يقر بالدين ثم يؤدي وليس يؤدي ، (و ليس يؤدي) (1) ثم يقر (بالدين) (3) و ليس إقراره من قبل أدائه ، و لكن أداؤه من قبل إقراره ، و العبيد من فقبل إقرارهم (لواليهم بالعبودية يعملون لها ، و ليس من قبل عملهم يقرون لهم بالعبودية) (3) (و ذلك أنه كم من إنسان) (4) يعمل لآخر لا يكون بذلك مقراً له بالعبودية) (5) و لا يعمل ، فلا يذهب عنه اسم اقراره بالعبودية (6) .

6 ـ كتاب الآثار : و هو غير كتاب الأثار للإمام محمد ، وقد اشتهرت روايته في القدماء من أهل العراق من المحدثين ، قال الحافظ الأمير بن ماكولا في باب الجصيني : و الجصيني من كتاب الإكمال أحمد بن بكر بن سيف أبو بكر الجصيني ثقة يميل ميل أهل النظر ، روى عن أبي وهب ، عن زفر بن هذيل ، عن أبي حنيفة كتاب الآثار ، و حديث عن عبدان بن عثمان ، هكذا ذكره الحافظ السمعاني في كتاب الأنساب . قلت : و قد روى الآثار هم محمد تلميذه ، و هذه الأثار موجودة في المكتبات و قد طبعت بحيدر آباد الهند . 7 ـ كتاب المقصود : و هو في لاتصريف قال في كشف الظنون : و قيل لغيره ، و جزم البركلي في شرحه أنه للإمام الأعظمرحمه الله .

8 ـ كتاب الرسالة : فهذا الكتاب ذكره ابن النديم البغدادي في كتاب فهرست العلماء ، و كتاب كشف الظنون ذكر في حرف الراء ، و هو رسالة عثمان بن مسلم أبي عمرو البستي قاضي البصرة .

9 ـ كتاب الفقه الأكبر ، هو كتاب مشهور يدرس في جميع المدارس و الجامعات الإسلامية في الباكستان و الهند ، و قد شرحه مولانا علىالقارئ رحمه الله تعالى و يختص بالعقيدة لأهل السنة و الجماعة . و قد قرأته دراسةً على علماء جامعة ندوة العلماء لكهنؤ الهند ، التي يرأسها أستاذنا العلامة أبو الحسن الندوي حفظه الله و جامعة ندوة العلماء ، من أضخم

الجامعات و أكثرها تحملاً لأعباء الدعوة إلى الله في خضم الوثينة الهند و كيه المشركة ، و التيارات المعادية للإسلام .

10 ـ كتاب : الله في السماء دون الأرض : و زاد في سند هذا الكتاب ما هو ضعيف فلم يثبت عند الغمام مثل هذا الكتاب ، و له قصة مفادها أن الكتاب غير صحيح النسبة لأبي حنيفة (1) .

11 ـ كتاب الإرجاء ذكره ابن النديم محمد بن اسحاق البغدادي في " فهرست العلماء " قال الشيخ عبد الرشيد النعماني في مقدمة " كتاب التعليم " : الفهرست المطبوع بمصر فلم يذكر هذا الكتاب . و قال صاحب " معجم المصنفين " : فهذا كتاب ذكره ابن النديم محمد بن اسحاق البغدادي في " فهرست العلماء " و قال : نقض عليه البردعي (1) .

12 ـ كتاب الرد على القدرية ، ذكره ابن النديم البغدادي في " فهرست " .

13 ـ كتاب الرسالة : و قد صح عن أبي يوسف أنه قال : ناظرت أبا حنيفة في مسألة خلق القرآن ستة أشهر فاتفق رأيي و رأيه أنه من قال بخلقه فهو كافر . و كتاالرسالة يلي الفقه الأكبر ، و تسمى أيضاً " الفقه الأوسط ، و أول كتاب الرسالة هو : بسم الله الرحمن الرحيم من أبي حنفية إلى عثمان البتى سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد أوصيك بتقوى الله و طاعته و كفى بالله حسيباً ، ثم سرد

شيخنا بمرمتها كما قال الشيخ عبد الرشيد النعمتني في مقدمة " كتاب التعليم " : . قلت : إن رأيت كتاب الرسالة محفوظاً و قد نسخته ، و ما زالت نسخته المحفوظة في مكتبتي الخاصة و الله أعلم ، و نسخته الأصلية المحفوظة في المكتبة الأحمدية ، في حلب ، سوريا .

14 ـ كتاب الوصية : نسخته ما ذكره الشيخ ابن نجيم المصري في كتابه " الأشباه و النظائر " بتمامه : و له كتاب الوصية أخر نسخه ما اشتهر بالطبع في بلاد الهند ، و هي فضول ذكر فيها عقائد الإسلام ، كما ذكره الشيخ عبد الرشيد النعماني .

و الوصايا لأبي حنيفة مشهورة ، و قد و جدت نسخة محفوظة في المكتبة القفية بحلب نسختها بيدي ، و هي موجهة للقاضي أبي يوسف و غيره فيها النصح و الإرشاد للقضاة .

15 ـ كتاب الرد على الأوزاعي و هو كتاب يعرف باختلاف الأوزاعي و أبي حنفية في السير أصله للإمام ، فرد عليه الأوزاعي ، ثم رد الإمام أبو يوسف على الإمام الأوزاعي ، فأخذ الشافعي و رد على أبي يوسف رحمهم الله تعالى .

إن ما ذكر في مصنفات الإمام رحمه الله بين قبول و تسليم ورد ورفض ، لا تنقص من مكانته حيث إن الواقع و المشهود له عند الأئمة المعاصرين له و الذين جاؤوا من من بعده أنه إمام في العلم و الفقه لا يجاريه أحد ، و هو أول من صنف العلم في أمة محمد (1) .

و له رحمه الله مصنفات في الحديث سوف نذكرها في مكانها إن شثىاء الله تعالى .

أول من صنف العلم :

كما علمنا أن الإمام تابعي رأى أنس بن مالك و غيره من الصحابة رضي الله عنهم ، و تلقى العلم مكمن عاصرهم و هم كبار التابعين ، و عاش ممعهم و ناقشهم العلم و سمع منهم حديث رسول الله و أقوال الصحابة الكرام حتى تمكن من العلم و نبغ فيه ، و وص إلى المعلم و الشيخ المراشد المربي فأصبحت له مدرسة مستقلة يجتمع فيها الطلاب و العلماء المعاصرين له ، يبحثون العلم و يتدارسونه مع الحجة و البرهان ، و كان يطوف على العلماء و المحدثين المعاصرين ، و يتدارس العلم معهم بين مستفيد و مفيد ، و كان العلم حينذاك في صدور التابعين الذين نقلوه من أفواه الصحابة رضي الله عنهم ، أو مما كان مكتوباً عندهم على الرقاع و الجريد و غير ذلك دون ترتيب أو تبويب ، و قد شرح الله صدر أبي حنيفة إلى جمع العلم و تبويبه و ترتيبه حسب مصلحة الأمة و الضرورة الملحة لذلك ، فقال الحافظ الموفق رحمه الله : أبو حنيف أول من دون علم هذه الشريعة ، لم يسبقه أحد ممن قبله ، لأن الصحابة و التابعين رضي الله عنهم لم يضعوا في علم الشريعة أبواباً مبوبةً و لا كتباً مرتبةً ، و إنما كانوا يعتمدون على قوة فهمهم ، و جعلوا قلوبهم صناديق علمهم ، فنشأ أية حنيفة

بعدهم فرأى العلم منشراً ، فخاف عليه الخلف السوء أن يضيعوه ، و لهذا قال: ((إن اللله تعالى لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ، و إنما ينتزعه بموت العلماء فيبقى رؤسائه جهال فيفتوتن بغير علم فيضلون و يضلون)) فلذلك دونه أبو حنيفة ، فجعله أبواباً مبوبةً و كتباً مرتبةً ، فبدأ بالطهارة ، ثم بالصلاة لأن المكلف بعد صحة الإعتقاد أول ما يخاطب بالصلاة ، لأنها أخص العبادات و أعم وجوباً ، و أخر المعاملات لأن الأصل عدمها و براءة الذمة منها ، و ختمه بالوصايا و المواريث لأنها أخر أحوال الإنسان فما أحسن ما ابتدأبه و ختم .

ثم قال أيضاً : صنف العلم ، و كان أول من بدأ بهذا العمل العظيم الذي جاءت الأمة من بعده عالةً عليه ، كما يقول الإمام الشافعي رحمه الله: الناس عيال على أبي حنيفة في الفقه ، فهذا أول من صنف و أحسن و أجاد في شروعه لهذا العمل الذي لم يسبقه أحد قبله ، فرحمه الله و متعنا بفهم علمه المستمد من أصول الشريعة الخالدة (1) .

مالك 2

الـــفـــصـــل الـــثـــانـــي
الإمام مالك بن أنس رحمه الله
إمام دار الهجرة
نسبه و ولادته :

هو فقيه الأمة شيخ الإسلام أبو أبو عبد الله الأصبحي المدني الفقيه إمام دار الهجرة (1) ، يعود إلى نسبه إلى ذي أصبح من اليمن ، و هو من أسرة عربية منذ زمن الجاهلية حتى زمن الإسلام ، و قد اتخذ الإمام مالك المدينة المنورة مسكناً و دار إقامة له ، و الأصبحي نسبة إلى جده الحارث ذي أصبح فلهذا يقال له : الأصبحي (2) .

و يعود نسبه إلى ولد قحطان (3) و قد ذكره المؤرخون و أصحاب السير و لم أحد في كونه عربي الأصل و المنشأ غير أنهم اختلفوا بولائه للتيمى ، و الصواب أن لا ولاء لأحد عليه ، و يؤيد ذلك ما ذكره عبد الله بن صالح الهاشمي . فقال : مالك بن أنس ذي أصبح ، و جاء المهاجر إلى عثمان بن

عبد الله التيمى أو غيره يشتكي أبا عامر جد مالك بن أنس ، و كان المهاجر على الصداقة ، فقال للتيمى ، ألا تعذرني من مولاك ؟ قال ليس بمولاي عهو رجل من العرب من أهل اليمن (1) .

و كان أبو عامر جد الإمام من صحابة رسول الله و شهد المغزي كلها مع النبي خلا بدراً ، و كان ابنه مالك جد الإمام مالك يكني بأبي أنس من كبار التابعين ، ذكر ذلك غير واحد ، و إنه يروى من عمر و طلعة و عائشة و أبي هريرة و حسان بن ثابت رضي الله عنهم ، و كان من أفضل الناسى و علمائهم ، و هو من أحد الأربعة الذين حملوا عثمان بن عفان رضي الله عنه ـ ليلاً ـ إلى قبره و غسلوه و دفنوه ، و كان خدناً لصلحة (2) .

و قد ولد الإمام مالك في المدينة المنورة سنة 93 ه على الخلاف الصحيح في خلافة عبد الملك بن مروان الأموي ، و نشأ في أسرة عربية عريقة في العلم و اللفضل ، و في بيئته التابعين الذين اتخذوا مدينة رسول الله موطناً لهم و مسكناً ، فاستقى علومهم و روى عنهم و تفقه على أئمتهم رضي الله عنه و عنهم (3) .

فحري بمثل هذا المجتمع الصالح الذي تربي فيه مالك ، و البيئة العلمية الطيبة الطاهرة أن تنتج إماماً مثل مالك رحمه الله ، فكان مثال المقتدي و الإمام الحتذي الذي عرف طريق الآخرة بصدق فسار عليه .

صفته الخلقية و الخلقية :

إن الله سبحانه خلق مالك بن أنس رحمه الله بأجمل صورة ، و هي أقرب للكمال فتراه طويسلاً عظيم الهامة ، شديد البياض يميل إلى الشقرة ، أصلع لا يحلق شاربه ، بل يقص ما نزل إلى الشفة ، و كان يكره أن يخفه ، بل يعيب على من قد حاف شاربه أو حلقه و يعتبر ذلك من المثلة (1) .

و قد وصفه أحدهم بأن في أذنيه كبر كأنهما كفا إنسان أو غير ذلك (2) فقال أبو عاصم : ما رأيت محدثاً أحسن من مالك ، و قال عيسى بن عمر المدني : ما رأيت قط بياضاً أو حمرةً أحسن من وجه مالك و لا أشد بياض ثوبه منه .

و قد وصفه غير واحد من أصحابه منهم : مطرف و اسماعيل و الشافعي ، و بعضهم يزيد على بعض فقالوا : كان طويلاً عظيم الهامة ، أبيض الرأس و اللحية ، شديد البياض إلى الصفرة ، و أحلاهم عيناً ، حسن الصورة ، أصلع ، باسم ، عظيم اللحية تامها ـ تبلغ صدره ـ ذات سعة و طول ، و كان يأخذ إطار شاربه و يحلقه ، و لا يحفه ، و كان يرى حلقة من المثلة ، و كان يترك له سبلتين ، و يحتج بفتل عمر شاربه إذا همه الأمر ، و وصفه أبو حنيفة أنه أزرق . قال القاضي أبو العباس بن شريح حين ذكرت صفته هذه فقال ـ أي قاضي ـ الفراسة تدل على أن هذه صفة من كان عاقلاً (3) .

و لمجلسه هيبة و وقار ، و لا يتحدث إلا متمكناً على طهارة ، و كان يكره أن يتحدث على الطريق ، أو قال : قائماً أو

مستعجلاً ، و قال ـ أي مالك ـ : لا أركب في مدينة فيها جثة رسول الله مدفونة ، فكان لا يركب في مدينة مع ضعفه وكبر سنه .

فذلك من أدبه و احترمه لرسول الله   ، و يدل هذا على ورعه و دينه و تقواه ، و كان ثاقب الذهن و الفهم واسع العلم .

و هو الثقة الثبت الصادق الأمين ، و قد اتصف بالصفات الحميدة كما يظهر لنا إن شاء الله من ثناء الأئمة رحمه الله (1) .

شيوخه و تلامذته رحمه الله :

إن المواطن الذي اختاره الله للإمام مالك هو أكرم مواطن و أطهر بقعة على وجه الأرض ، ألا وز هو مواطن الحرمين الشريفين مكة و المدينة ، و ما لهذا المواطن حب و تقدير و إجلال في نفوس المواطنين و العلماء خاصةً ، و كانوا يتهافتون لزيارته و العبادة فيه ، و لما في العبادة فيه من الإجلال و الجلال و الأجر و المثوبة ، و خاصةً في موسم الحج و العمرة ، و قد أمر الله عباده و فرض عليهم قصده و لو في العمر مرةً ، فكان العلماء و قادة الأمة الإسلامية بالعلم و الورع تهوى ملبيةً نداء تاالله لهم

و كان المالك ينتقل بين الحرمين الشريفين ، و يلتقي برجالات العلم و الحديث و الفقه ، حتى كثرت شيوخه ، و توسعت مداركه العلمية ، وأصبح ممن تضرب إليه أكباد الإبل بغية العلم و الإستفادة من فضله ، حتى قال الذهبي : روى عن نافعة و المقبري و نعيم المجمر و الزهري و عامر بن عبد الله بن الزبير و عبد الله بن دينار و ابن المنكدر و خلق كثير (1) . و قد رأى عطاء بن رباح حين قدم المدينة (2) . و قال عبد الله بن أحمد : قلت لأبي : من أثبت أصحاب الزهري ؟ قال : مالك أثبت في كل شيء (3) .

فقد أخذ عن الزهري و لزمه في مجاله حتى إنه كان يلزم بيته ومجالسه و يحفظ ما شاء الله له من الحفظ ، و لزم ابن هرمز سبع سنين ، و روى عن ربيعة ، فقال أنس بن عياض : جالست ربيعة ـ الرأي ـ و مالك يومئذ معنا و لا يعرف إلا بمالك أخو النضر ، ثم مازال حرصه على طلب العلم حتى صرنا نقول النضر أخو مالك (4) .

و قال مالك : كتبت بيدي مائة ألف حديث ، و قال أيضاً : أتيت زيد بن أسلم فسمعت حديث عمر أنه حمل على فرس في سبيل الله ، فاختلفت فيه أياماً أسأله عنه ، فيحدثني : لعله يدخل فيه شك أو معنى فأترك لأنه كان ممن شغله الزهد عن الحديث (5) .

و أما تلامذته و الأخذين عنه فخلق كثير لا يحصى عددهم ، حتى قال الذهبي :و حدث عنه امم لا يحصون ، منهم

ابن المبارك و القطان و ابن المهدي و ابن القاسم و القعنبي و عبد الله بن يوسف (1) . و روى عنه الشافعي (2) .
و قال : قدمت على مالك بن أنس و قد حفظت " الموطأ " ، فقال لي : أحضر من يقرأ لك ؟ فقلت : أنا قارئ فقرأت عليه " الموطأ " حفظاً فقال : إن يك أحد يفلح فهذا الغلام (3) . و قد كثرت الآخذين عنه حتى الإمام محمد بن الحسن تلميذ أبي حنيفة لزمه و أخذ عنه و روى عنه " الموطأ " و يحيى بن يحيى روى عنه " اللوطأ " و روى عنه أبو حنيفة رحمهما الله و بعض شيوخه وم أقرانه ، و قال الشافعي : قال محمد بن الحسن : أقمت عند مالك بن أنس ثلاث سنين و كسراً (4) .

أخذه العلم رحمه الله :

إن الطريقة التي سلكها الإمام مالك رحمه الله في أخذه العلم من أسلم الطرق و أثبتها ، فقد اشترط على نفسه أن لا يأخذ إلا عن ثقات عدول و أئمة عرفوا دينهم و علمهم ، و تأدبوا بأدب العلم و
المعرفة ، فقال رحمه الله : قلت لأمي : أذهب فأكتب العلم ؟ فقال تعال فالبس ثياب العلم ، فألبثتني ثياباً مشمرةً و وضعت الطويلة على رأسي و عممتني فوقها ثم قالت : اذهب فاكتب الأن ، و قال رحمه الله : كانت أمي تعممني وتقول لي : اذهب

إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه ، ، و قال أيضاً : كان لي أخ في سن ابن شهاب فألقى أبي يوماً علينا مسألةً ، فأصاب أخي و أخطأت ، فقال لي أبي : ألهتك الحمام عن طلب العلم ، فغضب و انقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين ، و في رواية : ثمان سنين و لم أخلط بغيره (1) و صاحب الزهري و حفظ منه و روي عنه كثيراً بعد أن استقى من علمه .

ثم إنه رحمه الله أنفق في سبيل طلب العلم ما يملك حتى باع خشب بيته فقال ابن القاسم : أفضي بمالك طلب العلم إلى أن تنض سقف بيته فباع خشبه ، ثم مالت عليه الدنيا بعد (2) . إنه كان يعتمد الأخذ على الفقيه الذي يعرف بما يحدث وم يفقه معنى الرواية و التحدث (3) . قال ابن وهب : نظر مالك إلى العطاف بن خالد فقال : بلغني أنكم تأخذون من هذا ؟ فقلت : بلى ، فقلا : ما كنا نأخذ الحديث إلا من الفقهاء (4) . و في رواية ابن وهب عن مالك أنه قال : أدركت بهذه البلدة أقواماً لو استسقى منه القطر لسقوا ، قد سمعوا العلم كثيراً ، ما حدثت عن أحد منهم شيئاً لأنهم كانوا ألزموا أنفسهم خوف الله و الزهد ، و هذا الشأن يعني الحديث و الفتيا يحتاج رجل معه تقي و صيانة و إتقان و علم و فهم و فيعلم ما يخرج من رأسه و ما يصل إليه غداً ، فأما رجل بلا إتقان و لا معرفة فلا ينتفع به و لا هو حجة و لا يؤخذ عنهم (5) .

و يقول أحمد بن صالح : ما أعلم أحداً أشد تنقياً للرجال و العلماء من مالك ، ما أعلمه روي عن أحد فيه شيء ، روى عن قوم ليس يترك منهم أحد (6) . فرحمه الله عليه .

منزلته بين العلماء رحمه الله :

إنه إمام دار الهجرة ، و عالم عصره و زمانه ، و المحدث الفقيه صاحب مذهب ، و أتباعه في أقصى الغرب و أفريقيا و الأندلس و مصر ، و أخذ عنه الأئمة ، و استقوا من علمه و فقهه و آرائه و روايته لحديث رسول الله حتى قال الشافعي : إذا ذكر العلماء فمالك النجم (1) .

و يرى الشافعي أن الإمام مالك أعلم أهل زمانه ، فهو نجم ساطع بين العلماء الأئمة ، و هذا ابن وهب يخبرنا و يقول : سمعت منادياً ينادينا : ألا يفتي الناس إلا مالك بن أنس و ابن أبي ذئب (2) . حتى اشتهر القول على ألسنةالعلماء : أيفتي ومالك في المدينة ؟ و يعتبر الإمام الشافعي أن الإمام مالك حفظ علم الحجاز من الضياع ، فقال : مالك و ابن عيينة القرينان ، و لو لا مالك و ابن عيينة لذهب علم الحجاز (3) .

و أجمع العلماء على أن مالك بن أنس إمام أهل الحجاز و هذا رسول الله يقول : يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل فيطلبون اللعم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة ، و لما كان عليه الإمام مالك من العلم و الفقه و الفضل ، فقد أول

كثير من العلماء هذا الحديث إلى أن يشير إلى مالك بن أنس ، فقال عبد الرزاق : و كنا نراه في مالك بن أنس (4) .

و هذا أحمد بن حنبل يقول : مالك سيد من سادات أهل العلم و هو إمام في الحديث و الفقه ، و من مثل مالك متبع لآثار من مضى مع عقل و أدب ؟ يقول عبد الرحمن بن المهدي : أئمة الحديث الذين يقتدي بهم أربعة : سفيان الثوري بالكوفة ، و مالك بالحجاز ، و الأوزاعي بالشام ، و حماد بن زيد بالبصرة ، و وزان بين الثوري و الأوزاعي فقال : الثوري إمام بالحديث و ليس إماماً بالسنة ، و الأوزاعي إماماً بالسنة و ليس إماماً بالحديث ، و مالك إمام فيهما (1) .

و المراد بالسنة كما ذكر أبو زهرة : إنها العلم بأقضية الصحابة و فتاواهم ، كذلك العلم بأقضية التابعين و فتاواهم .

و أقول : إن مقتضى العلم دون معرفة الأحوال و الحوادث التي قيلت في هذه الأقضية لا يسمى صاحبها فقيهاً ، و الإمام مالك رحمه الله كان متفقهاً بها و عالماً بأسرارها ، فلذلك أطلق عليه فريق الحجاز و عالمها ،

و قال الذهبي : و قد اتفق لمالك مناقب ما علمتها اجتمعت لغيره منها :

1 ـ طول العمر و علو الرواية .

2 ـ الذهن الثاقب ، و الفهم ، و سعة العلم .
3 ـ اتفاق الأئمة على أنه حجة صحيح الرواية .
4 ـ تجمعهم على دينه ، و عدالته ، و اتباعه السنن .
5 ـ تقدمه في الفقه و الفتوى و صحة قواعده (2) .

من مناقبه رحمه الله :

قال الإمام النووي في " المهذب " : اجتمعت طوائف العلماء على أمانته و جلالته ، و عظيم سيادته و تبجيله و تقريره ، و الإذعان في الحفظ و الثبت و تعظيم حديث رسول الله (1) .

فإنه رحمه الله كان موضاً بالنبوغ و احترمه لحديث رسول الله و المبالغة في تأديبه مع رسول الله و احترمه لحديثه ، فإنه رحمه الله لا يركب في تأدبه مع رسول الله فيها و لا يحدث إلا على وضوء كما مر معنا .

و قد شهد بالفتيا و العلم و التحديث العلماء و الأئمة ، شارح موطأ الإمام مالك : أخذ العلم عن تسعمائة شيخ و أكثر ، و ما أفتى حتى شهد له سبعون إماماً أهل لذلك ، و كتب بيده مائة ألف حديث ، و جلس للدرس و هو سبعو عشر عاماً ، و صارت حلقته أكبر من حلقة مشايخه في حياتهم ، و كان الناس يزدحمون على بابه لأخذ الحديث و الفقه كازدحامهم على باب السلطان ، و له حاجب يأذن أول للخاصة فإذا فرغوا أذنوا للعامة ، و إذا جلس للفقه جلس كيف كان ، و إذا أراد الجلوس

للحديث اغتسل و تطيب و لبس ثياباً جديدة و تعمم و قعد على منصته بخشوع و خضوع و وقار ، و يبخر المجلوس بالعود من أوله إلى فراغه تعظيماً للحديث ، حتى بلغ من تعظيمه له أنه لدغته عقرب ست عشرة مرة و هو يحدث فصار يصفر و يتلوى حتى تم المجلس و لم يقطع كلامه ، و ربما كان يقول للسائل : انصرف حتى أنظر ، قيل له ـ أي سئل عن السبب ـ فبكى و قال : أخاف أن يكون لي من السائل يوم أو يوم ، و إذا أكثروا سؤاله كفهم و قال : حسبكم فقد أخطأ من أكثر ، و من أحب أن يجيب عن كل مسألة فليعرض نفسه على الجنة و النار ثم يجيب ، و قال : و قد أدركناهم إذا سئل أحدهم فكأن الموت أشرف عليه ، و قد سئل عن ثمانين مسألة فقال في اثنتين و ثلاثين : لا أدري ، و قال ينبغي للعالم أن يورث جلساءه لا أدري ليكون أصلاً في أيديهم يفزعون إليه ، و كان إذا شك بالحديث طرحه .

و قال ابن القاسم : سأل أبو السمح مالكاً فقال : يا أبا عبد الله ! أيرى الله يوم القيامة ؟ فقال : نعم ، يقول الله عز و جل : ((و جوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)) و كان رحمه الله إماماً في الفقه فقد أفتى الناس بعد أن أذن له سبعون إماماً .

محنته رحمه الله :

اقتضت مشيئة الله تعالى أن يمتحن أولياءه في كل عصر و جيل ، و ذلك منذ عهد الأنبياء السابقين في الأمم الغابرة حتى يومنا هذا ، ترى في كل مكان في العالم الإسلامي

العلماء الأوفياء المخلصين أصيبوا بابتلاءات و محن في دينهم ، و هم صابرون محتسبون ذلك عند الله عز و جل الذي اشترى من المؤمن نفسه و ماله بهذه الحياة الدنيوية بأن له الجنة في الآخرة ، و العلماء هم أولى المؤمنين بفهم معنى هذا البيع و الشراء . فتراهم لا يثنون عن الحق و لا يخضعون لأي طاغية و ظالم .

و قاتل الله الحسد و أهله كما أهلك نفوساً بريئةً ، و حرم الأمة من قادةً و مرشدين أخلصوا لله العمل و النية ، فأوقعهم في الهلاك حسد أبناء الدنيا الزائلة الفانية عباد المناصب و الحكام ، و ذلك الإمام الأعظم أبو حنيفة رحمه الله كيف أودى به حساده إلى الموت تحت العذاب في عهد المنصور ، و هذا إمام دار الهجرة فقيه الحجاز و إمام المدينة المنورة كيف حاول حاسدوه الخلاص منه و هلاكه ، غير أن الله كتب له الحياة الأطول ليقدم للأمة الإسلامية النفع العميم .

يذكر ابن الجوزي في كتابه شذود العقود ، يقول : في سنة سبع و أربعين و مائة و فيها ضرب مالك بن انس سبعين سوطاً من فتوى لم توافق السلطان و الله أعلم (1) .

و قال ابن خلكان : إنه سعي إلى جعفر بن سليمان على بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، و هو عم أبي

جعفر المنصور ، و قالوا له : إنه لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشي ، فغضب حعفر فدعاه و جرده و ضربه بالسياط ، و مدت يده حتى انخلعت كتفه ، و ارتكب منه أمراً عظيماً ، و لم يزل الضرب في علو و رفعة ، و كأنما كأنت تلك السياط حلياً حلي به (2) .

فكان سبب ضربه و محنته وهو رواية حديث رسول الله : ((ليس على مستنكره طلاق)) و قت خروج محمد بن عبد الله بالمدينة على المنصور ، و قد نقله الناس و استشهدوا به أنه لا بيعة له للمنصور و التي أخذت منهم عنوةً ، فمنعه المنصور من رواية هذا الحديث ، غير أن الحاسدين أرسلوا من يسأله حول هذا الحديث ، فرواه لهم و نقلوه إلى والي المدينة جعفر بن سليمان و كادوا بتأويل معنى الحديث على أن مالك يفتي الناس أن لا بيعت في رقبتهم للمنصور ، و قالوا : لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء (1) .

فرواية الحديث هذا كانت و قت الفتن ، و استخدم الثأرون لتحريض الناس على الخروج مستغلين مكانة مالك في العلم و الإفتناء ، و جد الذين يسعون بالعلماء و أهل الفضل في ذلك سبيلاً للكيد بمالك رحمه الله فكادوا له فنهى مالك عن الحديث ، فلم يفعل (2) .

غير أن مالكاً لم يقصد تحريض الناس على الثورة على الخليفة أو غير ذلك فإن رحمه الله كان بعيداً كل البعد عن الحركات السياسية و التحريض عليها ، غير أنه كان حريصاً

على نشر العلم حتى لا يكون ممن يكتم اللعم فلهذا تراه يحرض تلامذته على نشر العلم و أن يفشوه و يكتموه (3) .

و قال أبو زهرة : و يظهر أن أهل المدينة عندما رأوا فقيهها و إمامها ينزل به ذلك النكال سخطوا على نبي العباس و ولاتهم ، و خصوصاً أنه كان مظلوماً ، فما حرض على فتنة و ما بغي ولا تجاوز حد الإفتناء ، و لم يفارق خطته قبل الأذى و لا بعده ، فلزم درسه بعد أن أبل من جراحه و رقئت ، و استمر في درسه لا يحرض و لا يدعوا إلى فساد ، فكان ذلك مما زادهم نقمةً على الحاكمين ، و جعل الحكام يحسون بمرارة ما فعلوه ، و خصوصاً أبا جعفر المنصور الداهية ، و الفرصة لديهم سانحة ، فإنه لم يكن بالظاهر ضارباً و لا آمراً بضرب و لا راضياً عنه ، لذلك عندما جاء إلى الحجاز حاجاً أرسل إلى مالك يعتذر إليه ، لما دخلت على أبي جعفر ، و قد عهد أن آتيه في الموسم ، قال لي : و الله الذي لا إله إلا هو ما أمرت بالذي كان و لا علمته ، إنه لا يزال أهل الحرمين ما كنت بين أظهرهم ، و إني أخالك أماناً لهم من العذاب ، و لقد رفع الله بك عنهم عفوةً عظيمةً ، فإنهم أسرع الناس إلى الفتن ، و قد أمرت عبد الله بأن يؤتي به من المدينة إلى العراق ألى قتب (1) ، و أمرت بضيق محسبه و الإستبلاغ في مهانته ، و لا بد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه ، فقلت : عاف الله أمير المؤمنين أكرم مثواه ، قد عفوت عنه لقرابته من رسول الله و قرابته منك ،

قال عفا الله عنك و وصلك (2) . هكذا ظهرت كرامة الإمام رحمه الله و سما نجمه و ارتفع شأنه عند الخليفة .

وفاته رحمه الله :

و هكذا امتحن اللإمام و صبر في سبيل نشر العلم و تمسكه به دون خوف لائم يلومه ، و تحمله في سبيل الله مع الصبر أورثه مكانةً عند الله و عند الناس من بعد ذلك ، و قد بلغ به السن الشيخوخة ، و وافته منيته و هو عزيز في الدنيا و الآخرة ، و قد اتفق المؤرخون و أصحاب المناقب على أن على أن و فاة الإمام رحمه الله كانت سنة 179 ه في المدينة المنورة و دفن في البقيع ، و إن كان بعضهم قال غير ذلك ، غير أن الصحيح و الذي عليه الإعتماد هو ما ذكرناه ، و هذا هون الذهبي يذكر في تذكرته أنه توفي سنة 179 ه . و قال : أصح الأقوال (3) . و قد أمضى حياته في طلب العلم و تعليمه و توجيه الناس لطاعة الله و رسوله .

تصانيفه رحمه الله :

قد صنف رحمه الله عديداً من التصانيف ، و من أهمها و أعمها كتابه " الموطأ " الذي روزاه تلامذته ، و قد درسته و أتقنته فهماً على شيخنا المحدث حبيب الله بالن بوري ، أستاذ الحديث في جامعة

ندوة العلماء لكهنؤا ، الهند ـ و درسته في جامع البختي بحلب ، و لي إجازة به ، من كبار العلماء و المحدثين في الهند .

قال السيد سليمان الندوي رحمه الله : إن جميع المصنفات التي صنفها الإمام مالك نعتبر من الذرجة الممتازة ، وم قد روى جميع تلامذته كتابه " الموطأ " و باقي مصنفاته ، و قد رويت عن بعض تلامذته ، و ثبتت مروياتهم عنه لهذه المصنفات (1) ، و قال الإمام الشافعي : ما في الأرض كتاب أكثر صواباً من " موطأ مالك " (2) .

و سبب تسميته الموطأ أنه قال : عرضت كتابي هذا على سبعين فقيهاً فلمهمك فأوطأني فسميته " الموطأ " و لم يسبق بهذه التسمية ، و قد كان ممن ألف في زمانه سمى الجامع و بعضهم سمى المصنف و بعضهم سمى المؤلف ، و المراد من الموطأ : أي المهد المنقح .

و قال أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الكتاني الأصفهاني : قلت لأبي حاتم : موطأ مالك لم سمي موطأً ؟ فقال شيء صنعه و وطأه للناس حتى قيل : موطأ مالك كما قيل : جامع سفيان .

و ذكر من مصنفاته : رسالته إلى الخليفة هارون الرشيد مشتملاً على 23 صفحةً ، و قال القاضي عياض أشهرها رسالة إلى ابن وهب في القدر و الرد على القدرية ، و هو من خيار الكتب في هذا الباب الدالة على سعة علمه بهذا الشأن .

و رسالة مالك في الأقضية كتب بها إلى بعض القضاة عشرة أجزاء .
و رسالته إلى غسان محمد بن مطرف في الفتوى و هي مشهورة يرويها عنه خالد بن نزار و محمد بن مطرف و هو من كبار أهل المدينة .
و له كتاب في التفسير مسنداً و كتاب المجالسات يرويها عنه ابن وهب (1) . فرحمة الله عليه .
فقد أدى ماة عليه ، و بقي ما على علكماء الأئمة اليوم أن يسيروا على نهج الأئمة و يسيروا نهجهم ، و يقتدوا برسول الله لخدمة هذا الدين الحنيف نسأل الله التوفيق .

شافعي 3

الـفـصــــل الـثـــــالــث

الإمام الشافعي المطلبي رحمه الله

نسبه و ولادته :

هو الإمام الثقة الحجة عالم مكة و فقيهها ، الذي ينسب إليه المذهب الشافعي ، أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب (1) نسيب النبي و ناصر سنته . و قد أجمع أصحاب المناقب و من كتب في نسبه و حياته أنه هاشمي النسب يعود نسبه إلى هاشم بن المطلب ، لقي جده شافع رسول الله و هو مترعرع ، و كان أبوه السائب صاحب راية بني هاشم يوم بدر ، فأسر و فدى نفسه ثم أسلم ، فقيل له : لم لم تسلم قبل أن تفدي نفسك ، ؟ قال : ما كنت أحرم المؤمنين مطمعاً لهم في (2) .

فيقول ابن عبد البر بعد أن ذكر نسبه إلى أن قال : و قد تقدم ، أنه شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي ، فالنبي هاشمي ، و الشافعي مطلبي و هاشم و المطلب أخوان ابنا عبد مناف ، و لعبد مناف أربعة بنين : و هاشم و المطلب و توفل و عبد شمس بنو عبد مناف ، و كذلك لا خلاف أن الشافعهي ولد سنة و خمسيين مائة من الهجرة ، و هو العام الذي توفي فيه أبو حنيفة رحمه الله (1) و قد ولد رحمه الله في اسرة عريقة من قريش ، غير أن مولده كان في مدينة غزة بفلسطين من بلاد الشام (2) .

و قا لالذهبي : و لد بغزة فحمل إلى مكة لما فطم (3)
و قال ابن خلكان و لد بغزة و قال : بعسقلان ، و قيل : باليمن ، و الأول أصح ، و حمل إلى مكة و هو ابن سنتين فنشأ بها ، و

لا تعارض بين القولين لأن عسقلان مدينة في فلسطين حينذاك و غزة تابعة لعسقلان ، و قد اتفق على أنه ولد بغزة ، و لا خلاف أنه حمل و عمره سنتين إلى مكة كما تبين ذلك و نشأ في مكة حتى ترعرع و حفظ القرأن و

أشعار العرب و لغتها ، و بلغ مبلغاً عظيماً في الحديث و الفقه ، و أصبح إماماً يقتدي به بتقليه عن كبار الأئمة و العلماء ، و قد كثرت رحلاته لطلب العلم .

خلقه و خلقه رحمه الله :

أخرج الأبري عن الربيع أنه قال : قدم الشافعي مصر و قعد في مجلسه ، و كان يجالسه رؤساء أصحاب الخلق عبد الله بن الحكم و نظراؤه ، و كان الشافعي حسن الوجه و الخلق ، فحبب إلى أهل مصر من الفقهاء و النبلاء و الأعيان (4) . و يقول انب الصلاح : كان الشافعي طويلاً مائل الخدين قليل لحمة الوجه ، طويل العنق ، طويل القصب ، أسمر ، خفيف العارضين ، يخضب لحيته بالحناء قانية ، حسن الصوت و الصمت ، عظيم العقل ، جميل الوجه مهيباً فصيحاً من آداب الناس لساناً ، و إذا أخرج لسانه بلغ أرنبة أنفه ، و كان مستقيماً ، و نقل أنه كان وارد الأرنبة ، و كان على أنفه أثر جدري ، ماوي العنفقة ، أبلغ مفلج الأسنان .

و قد أخرج البيهقي عن يونس بن عبد الأعلى قال : كان الشافعي معتدل القامة ، و اضح الجبهة ، دقيق البشرة ، لونه إلىالسمرة ، و في عارضيه خفة (1) و زاد الزركلي : و كان حاذقاً بالرمى ، و كان رحمه الله بجانب جماله الخلقة متعه الله في الخلق الحسن الطيب الذي ورثه من رسول الله ، فتراه كريماً سخياً حتى قال الحميدي : الشافعي مرةً من اليمن و معه عشرون ألف دينار فضرب خيمةً خارج مكة فما قام حتى فرقها (2) و كان يستحي أن يرد السائل يقول الربيع : كان الشافعي إذا سأله إنسان استحي من السائل ة بادر بإعطائه ، فإن لك يكن معه أرسل إليه إذا رجع ،

و قال الربيع : و قد سمعنا بأهل الاستحياء و كان عندنا قوم و ما رأينا مثل الشافعي ، و تراه أديباً يعرف حق الرجال فيتأدب معهم ، فهذا هو يقول : ما أعلم أني أخذت شيئاً من الحديث أو القرأن أو النحو أو غير ذلك من الأشياء مما كنت أستفيده ، إلا استعملت فيه الأدب ، و كان ذلك طبعي إلى أن قدمت المدينة فرأيت من مالك ما رأيته من هيبته و إجلاله العلم ، فازددت من ذلك حتى ربما كنت أكون في مجلسه فأتصفح الورقة تصفيحاً رفقاً هيبةً له لئلا يسمع و قعها (1) . فقد كملت فيه الأوصاف ، و نبغ في علمه و عقله حتى قال عنه أبو عبيد القاسم بن سلام : ما رأيت رجلاً قط أكمل من الشافعي (2) و هكذا كان رحمه الله موصوفاً بالأخلاق و الأدب و الصفات الحميدة مع حب رسول الله r ، فرحمعه الله رحمةً واسعةً .

شيوخه رحمه الله :

كان رحمه الله منذ نشأته حريصاً على طلب العلم ، حتى إنه نقل عن كبار الأئمة و لزم المحدثين منهم الإمام مالك بن أنس ، و الإمام محمد بن حسن الشيباني ، و الفضل بن عياض ، و محمد بن أبي فديك ، و محمد بن خالد الجندي ، و مروان بن معاوية الفزاري ـ الحافظ الثقة ـ ، و مسلم بن خالد الزنجي ، و مطرف بن مازن الصنعاني ، و و كيع بن الجراح ـ أحد الأئمة العظام ـ و يحيى بن سعيد القطان ، و يوسف بن يعقوب بن الماجشون ، و أسامة بن زيد بن أسلم العدوي ، و إسحاق بن يوسف الأزرق الواسطي ، و إبراهيم بن سعد بن إبراهيم الزهري ، و إبراهيم بن هرم ، و خلق كثير ذكرهم صاحب معجم المصنفين (3) .

و ذكر بن ربيع بن سليمان قال : سمعت الشافعي يقول : حملت عن محمد بن الحسن حمل بختي ، و مرةً قال : وقر بعير ليس عليه إلا سماعي منه (4) . وجود القرأن على إسماعيل بن قسطنطين مقرئ مكة (1) .

و ذكر المزني و محمد بن عبد الله بن عبد الحكم جميعاً قالا : جاء الشافعي إلى مالك بن أنس فقال : إني أريد أن أسمع منك " الموطأ " فقال تمضي إلى حبيب كاتبي فإنه الذي يتولى قراءته ، فقال الشافعي : تسمع مني رضي الله عنه عنك صفحاً فإن استحسنت قراءني قرأني قرأته عليك و إلا تركت ، فقال : اقرأ ، فقرأت صفحاً ثم وقف فقال له : مالك هيبه ، فقرأ

صفحاً ثم سكت ، فقال له هيبه ، فقرأ فاستحسن مالك قراءته عليه أجمع (2) .

و قال الذهبي : و حدث عن عمه محمد بن علي ، و إبراهيم بن يحيى ، و عبد العزيز بن الماجشون ، و مالك بن أنس و خلق كثير (3) . و أقبل على العلوم و تفقه بمسلم الزنجي و غيره (4) . و قال الزركلي : أخذ عن مالك و مسلم بن خالد الزنجي و طبقتهما (5) .

و ما زال الشافعي يأخذ العلم عن أكابر العلماء و ثقاتهم حتى إنه كان يرتحل طلباً للعلم ، حتى قال ابن خلكان : و قد بغداد سنة خمس و تسعين و مائة فأقام بها سنتين ، ثم خرج إلى مكة ، ثم عاد إلى بغداد ثمان و تسعين و مائة فأقام بها شهراً ، ثم خرج بها إلى مصر ، و قد اتفق العلماء قاطبةً من أهل الحديث و الفقه و الأصول و اللغة و النحو و غير ذلك على ثقته و أمانته و عدالته و زهده و ورعه و نزاهة عرضه و عفة نفسه و حسن سيرته و علة قدره و سخائه (6) .

و ذكر ابن خلكان أن الشافعي كان يحضر مجالس ابن عيينة فقال : و كان سفيان ابن عيينة إذا جاءه شيء من التفسير أو الفتيا التفت إلى الشافعي و قال : اسألوا هذا الغلام (1) .

و هكذا تلقى رحمه الله العلم عن كبار الأئمة و الحفاظ و الفقهاء رحمهم الله .

تلامذته رحمه الله :

كما طالعتنا كتب المناقب و التاريخ أن الإمام الشافعي رحمه الله استوثق لنفسه في أخذه عن المشايخ ، فكذلك أستوثق الناس فأكثروا الأخذ عنه و كثر عددهم .

قال الذهبي : و عنه أحمد و الحميدي و أبو عبيد و البويطي و أبو ثور و الربيع المرادي و الزعفراني و أمم سواهم (2) .

وقال اسحاق بن راهويه : قال لي أحمد بن حنبل بمكة : حتى أربك رجلاً لم تر عيناك مثله فأقامني على الشافعي (3) .

هذه الرواية يستدل منها أن إسحاق يعتبر من الأخذين عن الشافعي ، و أما أحمد فقد كان من أجل تلامذته .

وقال حرملة : سمعت الشافعي يقول : سميت ببغداد ناصر الحديث (4) . و منها يظهر أن حرملة أخذ عنه كذلك فيعتبر من تلامذته .

وقد أخذ عنه بعض مشايخه و أقرانه الذين عاصروه ، و قد ذكر صاحب " معجم المصنفين " و نذكر بعض أصحابه الذين نقلوا عنه العلم اختصاراً و تجنباً عن التطويل ، و قد ذكر ابن حجر عشرة أنفس ممن أخذوا عن الإمام عن الحجازيين و العراقيين و المصريين و هم :

الأول ـ الحميدي أبو بكر عبد الله بن الزبير القرشي .
الثاني ـ سليمان بن داود بت أيوب البغدادي الهاشمي .
الثالث ـ أحمد بن حنبل الإمام المعروف .
الرابع ـ أبو ثور بن خالد الكلبي .
الخامس ـ حرملة بن يحيى التجيبي .
السادس ـ الزعفراني الحسن بن محمد بن الصباح .
السابع ـ المزني أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى .
الثامن ـ يونس بن عبد الأعلى الصدفي .
التاسع ـ محمد بن عبد الله بن عبد الكريم المصري .
العاشر ـ الربيع بن سليمان (1) .

هؤلاء أكثروا الأخذ عنه ، و نقلوا علمه أكثر من غيرهم رحمهم الله تعالى ، حيث إن الإمام كان كثير الأسفار إلى أقطار العالم الإسلامي لطلب العلم مستفيداً و معلماً مفيداً ، و قد تتلمذ عليه في مصر خلق كثير و في العراق و الحجاز ، و كان لا يألوا جهداً في نشر السنة و الجهد المستنبط من آراءه و آراء مشايخه حتى أصبحت له مدرسة مستقلة في مصر يأخذ فيها تلامذته آراءه و أفكاره يستفيدون منها و تبنوها ، و كانوا أداةً لنشرها في مصر و غيرها من البلاد ، فرحمه الله و رحم تلامذته و سائر الأئمة و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أخذه العلم رحمه الله :

أخرج الخطيب من طريق المزني قال : سمعت الشافعي يقول حفظت القرأن و أنا ابن سبع ، و حفظت " الموطأ " و أنا ابن عشر ، و أخرج الحاكم من طريق مصعب الزبيري قال : قرأ الشافعي أشعار هذيل ثم قال لي : لا تخبر بهذا أحداً ، و كان يسمر مع أبي من أول الليل إلى الصباح يتذاكر ، و كان في أول أمره يطلب الشعر و أيام الناس و الأدب ثم أخذ الفقه ، و كان السببب في ذلك أنه كان يسير على دابة له فيمثل ببيت شعر فقال له كاتب كان لوالد مصعب بن عبد الله الزبيري : مثلك يذهب في مروئته في هذا أين أنت من هذا الفقه ؟ ! قال : فهزه ذلك و قصد مسلم بن خالد الزنجي مفتى مكة فلازمه ، ثم قدم المدينة على مالك ، و أخرج الأبري في مناقب الشافعي من طريق سمعت الشافعي يقول : كنت و أنا في الكتاب أسمع العلم يلقن الصبي الكلمة فأحفظها ، قال : فخرجت من

مكة فلزمت هذيلاً بالبادية أتعلم كلامها ، و آخذ اللغة ، و كانت أفصح العرب (1) .

و بعد أن تعلم و نبغ في اللغة ، و قد رزقه الله فصاحةً و زكاءً سافر إلى المدينة يريد مالك بن أنس ليسمعه " الموطأ " ، و كان قد حفظه قبل وصوله إليه ، و أسمعه جميع " الموطأ " فاستحسن مالك قراءة الشافعي (2) .

و لزم مالكاً حتى ارتوى من علمه و ازداد علمه و فقهه للحديث و السنة ، ثم انتقل إلى بغداد و لزم محمد بن زيد الشيباني يستقي منه علمه و علم أبي حنيفة رحمه الله حتى كتب عنه حمل بعير ، قال الحافظ ابن حجر : انتهت رياسة الفقه بالمدينة إلى مالك بن أنس ، رحل الشافعي إليه و لزمه و آخذ عنه ، و انتهت رياسة الفقه بالعراق إلى أبي حنفية فأخذ عنه صاحبه محمد بن الحسن حملاً ليس فيها شيء إلا و قد سمعه عليه ، فاجتمع عنه علم أهل الرأي و علم أهل الحديث فتصر في ذلك حتى أصل الأصول و قعد القواعد و أ ذعن له الموافق و المخالف (1) .

و نشأ الإمام يتيماً فقير الحال فلهذا قال : لم يكن لي مال و كنت أطلب العلم في الحداثة ، و كنت أذهب إلى الديوان أستوهب الظهور فأكتب فيها ، و قد استوثقه شيخه مفتي مكة مسلم بن خالد الزنجي فأذن له في الفتوى و هو ابن عشرين سنةً أو دونها (2) .

و في رواية : أذن له و هو ابن خمسة عشر سنةً عن الحميدي (3) .

قلت : لا تعاض بين الروايتين فالرواية الأولى نقلها الذهبي و الثانية ابن خلكان ، فيحتمل أنه كان بين الخمسة عشر و العشرين من عمره ، فلهذا منهم من قال : خمسة عشر ، و منهم من قال : عشرين ، و الله أعلم بالصواب ، و المهم أنه رحمه الله أخذ علمه من موارده الأصلية مع حفظه و فهمه ، و استنبط ممن حفظ فقهه و علمه رحمه الله .

منزلته رحمه الله عند العلماء :

كان الشافعي رحمه الله منذ صغره يتصف بالذكاء و قوة الحفظ ، حتى إنه حين و صل إلى مالك مالك و أسمعه " الموطأ " من حفظه قال مالك عنه : إن يك أحد يفلح فهذا الغلام (1) .

و قد بشر به الإمام مالك أنه سوف يفلح ، و فعلا أفلح و بلغ مبلغاً عظيماً من العلم ، و كان الإمام محمد بن الحسن إذغ رآه عظمه و و أكرمه ، فقال أبو حسان الزيادي : ما رأيت محمد بن الحسن يعظم أحداً من أهل العلم تعظيمه للشافعي (2) ، و هذا إسحاق بن راهويه يقول : الشافعي إمام ، ما أحد تكلم بالرأي إلا و الشافعي أكثرهم اتباعاً و أقلهم خطأً (3) .

فها هو ذا يسلك مسلك الرأي السديد الذي يستنبطه منالكتاب و السنة كما كان شأن الإمام أبي حنفية رحمه الله ، و

قد أكثر الشافعي في نشر العلم و مجالسة طلاب العلم حتى قال عنه أحمد بن حنبل : ما أحد مس محبرةً و لا قلماً إلا و الشافعي في عنقه منة (4) .

و ذلك لكثرة تلامذته و انتشار علمه في الأمصار ، و ها هو ذا في المسجد الحرام يحدث الناس و يعرض آراؤه و مسئله التي استنبطها من الكتاب و السنة و الأجتهاد ، و الإمام أحمد يسمع عليه فيأتيه محفوظ بن أبي توبة البغدادي ليأخذه إلى ابن عيينة ، فقال رأيت أحمد بن حنبل ند الشافعي في المسجد الحرام فقلت : يا أبا عبد الله هذا سفيان بن عيينة في ناحية المسجد يحدث ، فقال : إن هذا يفوت و ذاك لا يفوت (1) .

و يفهم من ذلك أن الإمام الشافعي كثير الترحال فلهذا حرص الإمام أحمد على مجلسه ، و أما ابن عيينة فيمكن في أي وقت الحضور في مجلسه و الأخذ عنه .

و لهذا كان الإمام أحمد إذا قدم الشافعي استقبله و مسي بركابه ، و يقول يحيى بن معين : كان أحمد ينهانا عن الشافعي ، ثم استقبله يوماً و الشافعي راكب بغلته و هو يمشي خلفه ، فقلت : يا أبا عبد الله ! أتنهانا عنه و تمشي خلفه . فقال : اسكت ، لو لزمت البغلة لانتفعت (2) .

و كان أحمد يدعوا للشافعي ، فسأله ابنه قائلاً : سمعتك تكثر الدعاء أي رجل هو ؟ فقال : يا ! بني كان

الشافعي كالشمس للدنيا و كالعافية للبدن ، هل لهذين من خلف أو عنهما من عوض (3) . فرحمه الله كان كالشمس للأرض و العافية للبدن ، و ما أعظم وما قيل فيه رحمه الله .

من مناقبه رحمه الله :

قال ابن خلكان : كان الشافعي كثير المناقب ، جم المفاخر ، منقطع القرين (4) فمن مناقبه و علمه رحمه الله أنه كان يقول بأفضلية العلم على الصلاة النافلة ، و هذا الربيع بن سليمان المرادي يقول : سمعت الشافعي يقول : طلب العلم أفضل من الصلاة النافلة (5) حيث بالعلم تعرف حقيقة الصلاة .

و كان بغاية من الإخلاص ، يود أن يتعلم الناس أحكام الشريعة ، سواه تسبب الناس إليه العلم أو لا ، و هذا الربيع بن سليمان يقول : سمعت الشافعي يقول و هو مريض : و ددت أن الخلق يعلمون ما في هذه الكتب على أن لا ينسبوا منها إلي شيئاً ، يعني ما وضع من كتبه ، و في رواية : و ددت أن يفهم الناس ما في كتبي من معاني الكتاب و السنة و ينشروا ذلك و إن لم ينسبوه إلي (1) .

و كان كريماً سخياً يكرم الضيف ، قال المزني : كنت عند الشافعي يوماً و دخل عليه جار له خياط فأمره بإصلاح إزراره فأصلحها ، فأعطاه الشافعي ديناراً ذهباً ، فنظر إليه الخياط و ضحك ، فقال له الشافعي : خذه فلو حضرنا أكثر منه ما رضينا لك به ، فقال له : أبقاك الله إنما دخلنا عليك لنسلم

عليك ، قال الشافعي : أنت إذاً ضيف زائر ، و ليس من المروءة الإستخدام بالضيف الزائر (2) .

ثم يقول المزني و الربيع : سمعنا الشافعي يقول : لا تشاور من ليس في بيته دقيق ، لأنه مولد العقل (3) . و قال أيضاً عن الحسن بن إدريس الخولاني قال : سمعت الشافعي يقول : ما رأيت قط عاقلاً سميناً إلا واحداً و هو محمد بن الحسن ، قيل له : و لم ؟ قال : لأن العقل لا تعدوه إحدى خصلتين : إما أن يغتم لآخرته و معاده أو يغتم لدنياه و معاشه ، و الشحم مع الغم لا يتفق ، فإذا خلا من المعينيينصار في حد البهائم و حمل الشحم .

و كان محمد بن عبد الله بن الحكم يضع دواته التي يكتب بها على يساره فرآه الشافعي فقال له : أشعرت أنه يقال : إن من الحماقة أن يضع الرجل دواته على يساره (1) .

و هذا يدل على أخذه بالسنة ، و من السنة أن يكون الشيء على اليمين و يأخذه باليمين و هذا قوله : إذا كان معك نفقة فشدها على كمك الأيمن ، حتى لا يمكن للسارق سرقتها (2) .

و من ذكاءه و فراسته أنه إذا نظر في الرجل عرف ماذا يعمل و ما هي صنعته ، و هذا الحاكم يروي عن قتيبة قال : رأيت محمد ابن الحسن و الشافعي قاعدين بفناء الكعبة ، فمر رجل فقال أحدهما لصاحبه : تعالى حتى نزكن (3) على هذا

الآتي أي حرفة معه ، فقال أحدهم خياط ، و قال الآخر : نجار ، فبعيا إليه فسألاه ، فقال : كنت خياطاً و أنا اليوم نجار (4) .

و قد روى المزني ما هو أعجب من ذلك حيث قال : كنت مع الشافعي في الجامع إذ دخل رجل يدور على النيام ، فقال الشافعي للربيع : قم فقل له : ذهب لك عبد أسود مصاب بإحدى عينيه ، قال الربيع فقمت فقلت له ، فقال : نعم ، فقلت : تعال ، فجاء إلى الشافعي فقال : أين عبدي ؟ قال : مر تجده في الحبس ، فذهب فوجده بالحبس ، قال المزني : فقلت له : أخبرنا فقد حيرتنا ، فقال نعم رأيت رجلاً دخل من بين المسجد يدور بين النيام ، فقلت يطلب هارباً ، و رأيته يجيء إلى السودان دون البيض ، فقلت : هرب له عبد أسود ، فرأيته يجيء إلى مايلي العين اليسرى ، فقلت مصاب بإحدى عينيه ، قلنا : فما يدريك أنه في الحبس ؟ قال : العبيد السودان إن جاعوا سرقوا و إن شبعوا زنوا ، فتأولت أنه فعل إحداهما فكان كذلك (1) .

كان رحمه الله يهتم بشؤون المسلمين و يتألم لحالهم التي وصلوا إليها ، و يتمنى أن يكون أبناء الإسلام قد علموا جميع العلوم ، و أن لا يتركوا أي علم لغيرهم ، و هذا حرملة يقول : كان الشافعي يتلهف على ما ضيع المسلمون من الطب ،

و يقول : ضيعوا ثلث العلم و وكلوه إلى اليهود و النصارى ، ثم يقول الحسن البصري : سمعت طبيباً بمصر يقول : و رد الشافعي مصر فذاكرني بالطب حتى ظننت أنه لا يحسن غيره ، فقلت له : أقرأ عليك شيئاً من كتاب بقراط ؟ فأشار إلى الجامع فقال : إن هؤلاء لا يتركوني (2) .

محنته رحمه الله :

لقد كثرت الفتن في عهد نبي العباس و الإبتلاءات للناس و على الأخص الأئمة منهم . غير أن الأمراء يختلفون بحسب طبائعهم و حبهم للعلم ، فكان هارون الرشيد الخليفة العباسي يومئذ ، و كانت بعض الفتن في عهده ، و قد بلغه أنه هناك من يقوم خلافه في مكة ، فأرسل في طلبهم ، فقال أبو القاسم حمل من الحجاز مع قوم من العلوية تسعة و هو العاشر إلى بغداد ، و كان الرشيد بالرقة (3) ، فحملوا من بغداد إليه فأدخلوا عليه و معه قاضيه محمد بن الحسن الشيباني و كان صديقاً للشافعي و أحد للذين جالسوه في العلم و أخذوا عنه ، فلما بلغه أن الشافعي في القوم الذين أخذوا من قريش في الحجاز و اتهموا بالصعن على الرشيد و العي عليه اغتم لذلك غماً شديداً ، و راعى ذلك و قت دخولهم على الرشيد ، فلما أدخلوا على لارشيد سألهم و أمر بضرب أعناقهم ، فضرب أعناقهم إلى أن بقي حدث علوي من أهل المدينة .

قال هارون للعلوي : أ أنت الخارج علينا و الزاعم أني لا أصلح للخلافة ؟ فقال العلوي : أعوذ بالله أن أدعي بذلك

أو أقوله ، قال : فأمر بضرب عنقه ، ثم قدمت و محمد جالس معه ، فقال لي مثل ما قال للفتى ، فقلت يا أمير المؤمنين : لست بطالبي و لا علوي ، و إنما أدخلت في القوم بغياً علي ، و إنما أنا رجل من بني المطلب بن عبد مناف بن قصي ، و لي مع ذلك من الحظ و الفقه ، و القاضي يعرف ذلك ، أنا محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف ، فقال لي : أنت محمد بن إدريس ؟ فقلت نعم يا أمير المؤمنين ، قال ما ذكرك لي محمد بن الحسن ، ثم عطف على محمد بن الحسن ، فقال : يا محمد ! ما يقول هذا ، هو كما يقول ؟ قال : بلى و له من العلم محل كبير و ليس الذي رفع عليه من شأنه ، قال : فخذه إليك حتى أنظر في أمره ، فأخذني محمد و كان سبب خلاصي لما أراد الله عز و جل منه (1) . هكذا امتحن الإمام ، و قيل غير ذلك ، و الله أعلم بالصواب .

وفاته رحمه الله :

لقد ابتلى الله الإمام الشافعي بالمرض ، و لزمه حتى وفاته رحمه الله ، قال الربيع : أقام الشافعي ههنا أربع سنين ، فأملى ألفاً و خمسمائة ورقة ، و خرج " كتاب الأم " ألفى ورقة ، و كتاب السنن ، و أشياء كثيرة كلها في مدة أربع سنين ، و كان عليلا شديد العلة ، و ربما خرج الدم و هو راكب حتى تمتلئ سراويله و خفه يعني من البواسير .

و قد أخرج الحاكم من طريق محمد بن المنذر عن محمد بن عبد الله عن الحكم قال : كان الشافعي قد مرض من هذا الباسور مرضاً شديداً حتى ساء خلقه ، فسمعته يقول : إني لآتي الخطأ و أنا أعرفه ، يعني من ترك الحمية .

و دخل المزني على الشافعي في مرضه الذي مات فيه فقال له : كيف أصبحت يا أستاذ ؟ فقال : أصبحت من الدنيا راحلاً ، و لإخواني مفارقاً ، و لكأس المنية شارباً ، و على الله وارداً ، و لسوء عملي ملاقياً ، قال : ثم رمى بطرفه إلى السماء و استعبر و أنشد :

إليك إله الحق أرفع رغبتي و إن كنت يا ذا المن و الجود محرما تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك معظما

و قال حرملة : قال الشافعي : إذهب إلى إدريس العابد فقل له : يدعو الله عز و جل لي ، و أخرج الأبري من طريق ابن عبد الحكم ، قال " سئل عن القراءة عبد الميت فقال : كان أصحابنا مجتمعين عند

رأس الشافعي و رجل يقرأ سورة يس فلم ينكر عليه أحد منهم ، و جهزوا غسله فما زالوا وقوفاً على أرجلهم إلى أن كفن (2) و اتفق ابن خلكان و الذهبي و غيرهم من علماء التاريخ و

المناقب و الخطيب على أن وفاة الإمام الشافعي كانت سنة 204 للهجرة ، و قال ابن خلكان : لما كانت يوم الجمعة في آخر يوم من رجب و دفن بعد العصر من يومه و كانت وفاته في مصر (3) رحمه الله .

مصنفاته رحمه الله :

لقد ذكر مصنفات الإمام الشافعي كثير من العلماء و رجال المناقب و التاريخ ، و إني أسجل هنا ما وصلت إليه نتيجة البحث ، راجياً من الله التوفيق إلى الصواب . لقد سبق الإمام من ألف كتباً و جمع علماً غفيراً ، و اطلع الإمام على جميع المؤلفات التي سبقته و حفظها ، كما تبين أنه حفظ كتب أبي حنيفة و تفقه على شيخه محمد بن الحسن الشيباني ، و حفظ الموطأ على شيخه مالك بن أنس رحمه الله ، و ها هو رحمه الله يقوم بتأليف ما وصل إليه عقله الناضج و فكره النير ، و قد روى عنه كتبه تلامذته من بعده .

فأول ما كتب رحمه الله كتابه " الحجة " و هو كتاب البغدادي و هو مشتمل على ما يسمى بالقديم ، و كان يحاكي بتدوينه طريقة أهل العراق في تدوين الآثار ، و هو أول كتاب له ، و كان في الرد و المناظرة ، و له آراء مستقلة ، بل كان يدافع فيه عن فقه الحديث ، و فقه أهل المدينة، أو فقه مالك

بالذات ، لأنه كان يطلب المدنيين ، و كان عقب على أن اطلع الشافعي على كتب محمد بن الحسن ، و ذلك بلا ريب كان في قدمته الأولى إلى بغداد ، أي قبل أن يستقيم له رأي في الاجتهاد يستقل به عن طريقة مالك رحمه الله و بعد أن استقل بطريقة الاجتهاد و البحث و الفتيا أخذ يؤلف الكتب و يدون المبادئ فيها التي و ضعها للاستنباط و يدون و آراؤه في المسئل المختلف فيها ثم يدون السنن و الخلاف بين الصحابة ، و يختار من بين الآراء رأياً يرجحه و يعتنقه ، و لم نعرف له تأليفاً أنه ألفه بمكة ، و لم يذكر أحد من المؤرخين شيئاً عن بعض مصنفاته أنه كتب بمكة ، اللهم إلا إذا صح ما نميل إليه و هو أنه كتب الرسالة إلى عبد الرحمن بن مهدي و هو بمكة ، و أما بعد مجيئه إلى بغداد سنة 195 ه فإنه قد ذكرت مؤلفات كثيرة بها ، و لعله كان يكتبها بمكة و لا يرويها للناس حتى إذا وصل بغداد و قد أنضجتها كثرة الدراسة و المراجعة و الفحص و التمجيص أعلمها لتلاميذه و نشرها بين أصحابه .

و قال في : معجم المصنفين : : رسالة الشافعي (القديمة و الجديدة) العراقية ، و المصرية .

و أعلن الشافعي في بغداد كتبه ، أعلن الرسالة فيها ، و أقرأها تلاميذه ، و قال الزعفراني : قد م علينا الشافعي و اجتمكعنا إليه فقال : التمسوا من يقرأ لكم .

و هذا يدل على أنه كاتب عنده كتب كتبها و أعدها ، و قد حمل هذه الكتب تلاميذه و أشهرها من رواها الزعفراني و الكرابيسي و قد سميت كتبه التي كتبها بالعراق في الفقه و الفروع .

و يقول ملا كاتب الجلبي : " الحجة " هو مجلد ضخم ألفه بالعراق ، و إذا أطلق القديم في مذهبه يراد به هذا التصنيف ، و قال في " معجم المصنفين " : الكتاب البغدادي يعني " الحجة " .

و لقد سمي ابن النديم ما رواه الزعفراني عن الشافعي من الكتب " المبسوط " فهل " المبسوط " و " الحجة " واحد ؟ بمراجعة بيان ما اشتمل " مبسوط الزعفراني الذي ذكره في " الفهرس " و قال : إنه " المبسوط الذي رواه الربيع بمصر ، نجده يشتمل على كل كتب الشافعي في الفروع و الحجاج و المناظرة و الخلاف .

إذاً يصح لنا أن نقول : إن كتاب الحجة هو قديم عند ملا كاتب الجلبي الذي سماه ابن النديم في " فهرسة " المبسوط " ، و هو الذي يسمى " الأم " بعد أن غير فيه الشتافعي و بدل ،' و زاد و نقص بمصر ، و قال البيهقي : و كتاب الحجة الذي صنفه ببغداد حمله عنه الزعغراني ، و له كتب أخرى حمله عنه الحسين بن على الكرابيسي ، و أبو عبد الرحمن بن يحيى

الشافعى ، و قد وقع لي نسخ كتاب السير رواية أبي عبد الرحمن ، و فيه زيادات كثيرة ليست عند غيره ، و لأبي الوليد موسى بن أبي الجارود مختصر يرويه عن الشافعي فيه زيادات .

وجاء الشافعي مصر ، و فيها أعاد النظر في كتبه و آراءه في مذهبه فغير و بدل و وضع كتبه الجديدة ، و أملى مسائل كثيرة ، و روى عنه أصحابهة مسائل ، و قد أثر عنه كتاب " الأم " في مصر و روى عنه كتاب السنن ، و قال السيوطي في حسن المحاضرة : و صنف بها ـ أي بمصر ـ كتبه الجديدة ، كالأم و الأمالي الكبرى ، و الإملاء الصغير و قال ابن حجر في أوالي التأسيس : قال أبو الحسن الآبري : حدثنا ابن عبد الواحد حدثني محمد بن سعيد أخبرنا الفرياني أبو سعيد قال الربيع : أقام الشافعي ههنا ـ أي بمصر ـ أربع سنين فأملى ألفاً و خمسمائة ورقة و خرج كتاب الأم ألفى ورقة و كتاب السنن و أشياء كثيرة كلها في مدة أربع سنين .

و قد اختصر السيوطي كتاباً سماه " المختصر " ، و دون المزني كتاباً سماه " المختصر " و إن الربيع قد روى كل ما كتبه الشافعي ، و قد سمي ابن النديم ما رواه الربيع " مبسوطاً " ، كما كما سمي ما رواه الزعفراني " مبسوطاً " ، و الزعفراني هو ناقل كتب الشافعي ببغداد ، كما أن الربيع ناقلها بمصر ، فقد توهم كثير من المتقدمين الذين أرخوا للشافعي و تصدوا للكلام الذي في كتبه أنه لما جاء مصر أنشأ كتب الجديدة إنشاءً لم يكن متصلاً بالأول و بعض المتأخرين صدقوا ذلك ، و المعقول أن ماكتبه في الجديد هو إعادة نظر في القديم ، فما يراه صالحاً للبقاء و لم يتغير رأيه في أبقاه و أقرأه أصحابه و نقلوه عنه ، و ما تغير في رأيه يكتبه و يمليه على ما انتهى إليه ، و قد تأيد هذا القول بما جاء في توالي التأسيس لابن حجر ، قال البيهقي : و ببعض كتبه الجديدة لم يعد تصنيفها ، و هي : الصيام ، و الحدود ، و الرهن الصغير ، و الإجارة ، و الجنائزة ، فإنه أمر هذه الكتب عليه في الجديد ، و أمر يتحريق ما تغير في اجتهاده ، قال : و ربما تركه اكتفاءً بما نبه عليه من رجوعه في موضع آخر .

و هذه الحكاية مفيدةً ترفع كثيراً من الإشكال الواقع بسبب المسائل التي اشتهر عن الشافعي الرجوع عنها و هي مشهورة في كتبه .

و تعليق ابن حجر يستفاد منه أن الشافعي كان في تأليفه الجديد ينظر إلى القديم ، فما لا يتغير فيه رأيه قط يبقيه ، و ما تغير فيه رأيه و اجتهاده يصنفه ، و ثم يحرق القديم ، و ربما يترك بعض ما تغير فيه رأيه اكتفاءً بما نبه له من تغير رأيه في موضع أخر ، و كأن في هذا يقرأ القديم من غير أن يغير في عباراتهة ، و يعرض ما يوجب الرجوع و يصنفه و و ينبه إلى ذلك ، و قد يرجع عن بعض الجديد ، و كثيراً ما نرى الربيع يروي قول الشافعي في كتبه ثم يذكر أخر رأي له ، لأنه جاء بعد قراءة الكتب و سماعها (1) .

و على هذا المنوال سار الإمام في تصنيفه و كتبه ، فإن ما كتبه في العراق المسمى بالقديم أعاد تصنيفه و النظر إليه من جديد و ما أثبته في مصر من ذلك التصنيف و ما بدا له من جديد صنفه و سمي الجديد ، و الله ولي التوفيق .

الـفـصـل الـرابــــع

أحمد 4

الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله

نسبه و ولادته :

هو أحمد بن حنبل شيخ الإسلام ، و سيد المسلمين في عصره ، الحافظ الحجة ، أبو عبد الله أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد الذهلي المروزي ثم البغدادي ولد سنة أربع و ستين و مائة (1) .

و قال عبد الله بن أحمد : سمعت أبي يقول : و لدت في شهر ربيع الأول سنة أربع و ستين و مائة . و لم يختلف الرواة في زمن ولادته التي كانت بغداد و هو الصحيح (2) .

يقول ابن خلكان : خرجت أمه من مرو و هي حامل به ، فولدته في بغداد في شهر ربيع الأول سنة أربع و ستين و مائة ، و قيل إنه ولد بمرو و حمل إلى بغداد و هو رضيع و الأول هو

الصحيح حيث إن أصل أسرته من البصرة فعادت به حاملاً إلى بغداد و ولدت به فيها كما صرح والده عنه حسب رواية الذهبي و هو عربي الأصل و المنشأ فإن أسرتهة من شيبان من قبيله ربيعة عدنانية ، تلقى مع النبي في

نزار بن معد بن عدنان ، و كانت شيبان تسكن البادية القريبة من البصرة ، و قد كانت في الجاهلية قريبةً من العراق ، و لما بنى عمر بن الخطاب البصرة نزلت شيبان بتلك المدينة (1) .

و نشأ أحمد رحمه الله في بغداد مدينة السلام و العلم و الإزدهار في عصره ، و كان يتيماً كما قال الذهبي : إن أباه كان جندياً من أتباع الدعوة و مات شاباً (2) فقامت أسرته بتربيته ، و قد كان والده ترك عقاراً يسكنه وأخر يغل له غلةً قليلةً (3) .
و قال أبو زهرة : نشأ الإمام أحمد رحمه الله ببغداد و تربي فيها تربيته الأولى ، و قد كانت تموج بالناس و العلماء ، علماء اللغة ، و الفلسفة ، و الفقه ، و الحديث ، و غير ذلك من العلوم ، هذه البيئن أنشأت أحمد رحمه الله حتى غدا إماماً من أئمة الحديث و الفقه و صاحب مذهب يقتدي به في العلم الإسلامي ، و ما زال مذهبه حتى يومنا هذا يسود بعض العواصم اللإسلامية

بالقضاء و الفتيا ، و له أتباع يأخذون بأقواله ، و يتعلمها طلاب العلم .

صفته الخلقية و الخلقية رحمه الله :

يقول الخطيب في " تاريخه " : قال محمد بن العباس بن الوليد النحوي في مجلس ابن أبي داود : رأيت أحمد بن حنبل رجلاً حسن الوجه ، ربعةً من الرجال ، يخضب بالحناء خضاباً ليس بالقاني ، في لحيته شعرات سود ، و رأيت ثيابه غلاظاً إلا أنها بيض ، و رأيته متعمماً و عليه إزرار (1) و ورد أنه كان طوالاً رقيقاً أسمر اللون كثير التواضع جداً (2) .

و لا تعارض بين ربعة و طوال لأنه قد يكون أقرب إلى الطول من القصر فيراه الإنسان طويلاً ، و كان ضعيف الجسم ، يتصف بالزهد و الورع ، و حسن الأخلاق ، و صدق الحديث مع الناس و مع نفسه ، و نصح الأمراء فأحسن النصيحة لهم .

و يذكر صاحب " معجم المصنفين " أن المتوكل بعث مع حاجبه إلى الإمام أحمد بعشرة آلاف درهم من الخليفة ة هو يقرأ عليه السلام و يقول : أنفق هذه فامتنع من قبولها ، فقال : يا أبال عبد الله ! إني أخشا من ردك إياها أن تقع وحشة بينك و بينه ، و المصلحة لك قبولها ، فوضعها عنده ثم ذهب ـ الحاجب ـ فلما كان من آخر الليل استدعى الإمام أحمد أهله و بني عمه و عياله ، و قال : لم أنم هذه الليلة ، فجلسوا معه و كتبوا

أسماء جماعة من المحتاجين من أهل الحديث و غيرهم من أهل بغداد و البصرة ، ثم أصبح ففلرقها في الناس ما بين الخمسين إلى المائة و المائتين ، فلم يبقى منها درهماً ، و أعطى منها لأبي كريب ، و أبي سعيد الأشج ، و تصدق بالكيس التي كانت فيه ، و لم يعط لأهله شيء و هم في غاية الفقر و الحاجة (3) .
و هكذا زهد في الدنيا و رغب في الآخرة ، و اختار لنفسه الرزق الحلال الذي لا يتصل بأي شبهة حتى جوائز الأمراء و الخلفاء ، فكان شأنه شأن الصالحين الطيبين كأبي حنيفة رحمهما الله فإنه كان كذلك كما علمت لا يقبل جوائز الأمراء .

شيوخه رحمه الله :

كانت بغداد في عصر الإمام أحمد محط الأنظار ، و موفد العلماء ، و دار الخلافةالعباسية ، فقد تنوعت العلوم في عصره ، و اختلفت الفنون لكثرتها ، و لكنه لم يتجه إلا إلى علم الفقه و الحديث ، فقد توجهت عيانته إلى طلب الحديث ، فأخذ يبحث عن علمائه و حفاظه ليأخذ عنهم .

فقد وفق في الأخذ من شيوخ بغداد ، ثم سافر إلى بلاد كثيرة . إلى الحجاز ، ثم ألى اليمن و بلاد الشام ، و سمع من إسماعيل بن علية ، و هيثم بن بشير ، و حماد بن خالد ، و منصور بن سلمة الخزاعي ، و المظفر بن مدرك ، و عثمان بن عمر بن فارس ، و أبي النضر هاشم بن القاسم ، و أبي سعيد

مولى بني هاشم ، و محمد بن يزيد ، و يزيد بن هارون الواسطي ، و محمد بن أبي عدي ، و محمد بن جعفر غندر ، و يحيى بن سعيد القطان ، و عبد الرحمن بن مهدي ، و أبي داود الطيالسي ، و روح بن عبادة ، و إبراهيم بن سعد لازهري ، و عبد الرزاق بن همام ، و خلق كثير يتعذر إحصاوءهم (1) .

فأما أول ما توجه إليه ، فقد توجه إلى الفقه الموافق للحديث ، فحضر أبي يوسف صاحب أبي حنيفة ، و لزم الإمام الشافعي يأخذ عنه الفقه و قرأ كتبه ، و أخذ عن أبي يوسف فقه أبي حنيفة مما جعله

ناضجاً في فهم السنة و الاستنباط منها ، فقد فهم أسرار الشريعة ، و استفاد من الإمام الشافعي فائدةً

عظيمةً ، فقد لزمه و سافر إليه إلى مكة و حضر عليه ، ثم سافر إلى اليمن إلى عبد الرزاق بن همام ، فقال ابن القيم : و لقد اختار أحمد في صدر حياته رجال الحديث و مسلكهم فاتجه إليهة أول اتجاهه ، و يظهر أنه قبل أن يتجه إلى المحدثين أراد طريق الفقهاء الذين جمعوا بين الرأي و الحديث ، فيروي أن أول تلقيه كان على القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة ، و لكنه مال من بعد إلى المحدثين الذين انصرفوا بجملتهم إلى الحديث ، فقد قال : أول من كتب عنه الحديث أبو يوسف .

ثم اجتمع بالشافعي و أخذ عنه الفقه و تعلم الناسخ و المنسوخ ، فقال : ما عرفت ناسخ الحديث و منسوخه حتى جالست الشافعي ، رحمه الله و رحم الله مشايخه الذين غذوه بالعلم و الفقه المستنبط من السنة .

تلامذته رحمه الله :

كان رحمه الله مولعاً بحفظ الحديث و الآثار ، و كانت له حلقة يحفظ فيها و يحدث الحديث ، فقد احتمع عليه و روى عنه خلق كثير .

من أجل من روى عنه :

قال ابن خلكان : أخذ عنه الحديث جماعة من الأمائل ، محمد بن إسماعيل البخاري ، و مسلم بن الحجاج النيسابوري ، و ولداه صالح و عبد الله (1) .

و يزيد الذهبي أن ممن روى عنه أيضاً أبو داود و أبو زرعة و عبد الله بن أحمد ، و أبو القاسم و خلق كثير (1) .

و زاد الخطيب فقال : روى عنه خلق كثيرون منهم : أبو حاتم الرازي و إبراهيم الحربي ، و موسى بن هارون ، و عبد تالله بن محمد هارون و غيرهم (2) . تلقى عنه تلامذته رواية الحديث ، فقد روى ابنه مسنده المعروف بمسند أحمد ، و انتشرت آراؤه فيه و التي أملاها على تلامذته . و يلاحظ في دروسه رحمه الله ثلاثة أمور مجالها الأثر الكبير فيمن يسمع منه :

1 ـ إنه كان يسود مجلسه الوقار و السكينة مع التواضع و اطمئنان النفس .

2 ـ إنه كان لا يحدث و لا يلقي درساً إلا بعد أن يطلب منه و يسأل ، فإذا طلب منه كان يستحضر الكتب التي دونت فيها تلك الأحاديث ، و لا يحدث لحديث إلا من كتاب حرصاً على جودة النقل و إبعاداً لمظنة الخطأ ما أمكن .

3 ـ و يلاحظ من مجالس الإمام أحمد في درسه أنه كان يمليها على تلاميذه من حيث أن موضوعها قسمين :

1 ـ رواية الحديث و نقله ، هذه يمليها على تلاميذه من كتاب .

2 ـ فتاواه الفقهية التي كان يضطر إلى استنباطها ، فكان لا يسمح لتلامذته أن يدونوها ، و لا يسمح لهم أن ينقلوها عنه (3) .

فكان لا يستجيز التدوين إلا للأحاديث فقط ، و أما الفتاوى فإن تلامذته كانوا يحفظونها حفظاً .

أخذه العلم رحمه الله :

كانت بغداد المدينة التي نشأ فيها الإمام أحمد رحمه الله تجمع العلوم و أنصاف الفنون كما أسلفنا ، غير أنه اتجه إلى الفقه ثم إلى الحديث الشريف .

و كانت لأسرته الأثر الكبير في توجيهه إلى العلم ، فقد ساعدته و وجهته إلى ما هو فيه خير لدينه و دنياه .

فقد دفعته أسرته ليعتكف على العلم و يتخذ له العلوم الممهدة له من علم اللغة الحديث و القرأن و مآثر الصحابة و التابعين ، و أصول الرسول و سيرته و سيرة أوليائه الأقربين الذين اختصوا بطول الصحبة و فقه الدين و لب اليقين ، و قد اتفقت هذه التربية مع نزوعه النفسي ، و ما كانت تصبوا إليه همته من غايات (1) .

فقد حفظ القرأن في صغره ، و تعلم اللغة و أتمها مع الكتابة حيث قال : كنت و أنا غليم أختلف
إلى الكتاب ثم أختلف إلى الديوان و أنا ابن عشر سنوات (2) .

ثم توجه إلى مجالس العلماء ، و أخذ عنهم العلم و سمع منهم الحديث . و هذا ابن القيم يقول : اختار أحمد في صدر حياته رجال الحديث و مسلكهم فاتجه إليهم أول اتجاهه ، و يظهر أنه قبل أن يتجه إلى المحدثين أراد طريق الفقهاء الذين جمعوا بين الرأي و الحديث ، فقد قال : أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف (1) .

رحل في طلب العلم كما أسلفنا ، فقد سافر إلى البصرة و تلقى من علمائها و جالاتها ، و إلى الحجاز و استقى من محدثيها ، ثم تتابعت رحلاته ، و هذا و لده صالح بن أحمد يقول : قال أبي كتبت عن هشيم سنة تسع و سبعين و لزمناه إلى سنة ثمانين و إحدى و ثمانين و اثنتين و ثمانين و ثلاث و ثمانين و مات سنة ثمان و ثمانين ، كتبنا عنه الحج نحواً من ألف حديث ، و بعض التفسير و كتاب القضاء ، و كتباً صغاراً ، و سأله ابنه صالح بعد هذا القول : يكون ثلاثة ألاف ؟ قال أكثر (2) .

و سافر إلى اليمن و أخذ عن عبد الرزاق بن همام ، و كان قبل سفره إلى اليمن أراد الحج ، ونوي أن يسافر بعد الحج إلى عبد الرزاق ، فأطلع صديقه و صاحبه يحيى بن معين و قد توافقت رغبتهما في ذلك ، فدخلا مكة و بينما هما يطوفان طواف القدوم إذا عبد الرزاق يطوف فرآه ابن معين ، و كان يعرفه فسلم عليه ، قال له : هذا أحمد بن حنبل أخوك ؟ فقال : حياه الله و ثبته ، فإنه يبلغي عنه كل جميل ، قال : نجيء إليك غداً إن شاء الله حتى نسمع و نكتب ، فلما انصرف قال أحمد معترضاً : لم أخذت على الشيخ موعداً ؟ قال لنسمع منه ، قد أربحك الله مسيرة شهر و رجوع شهر و النفقة ، فقال أحمد : ما كان الله يراني و قد نويت نية و أن أفسدها بما تقول نمضي فنسمع منه ، ثم مضى بعد الحج حتى سمع بصنعاء (1) .

هكذا تلقى رحمه الله العلم بين مافر مرتحل و بين مقيم ، إلى أن بلغ مبلغاً عظيماً ، و أصبح إماماً من الأئمة العظام يقتدي به فرحمه الله عليه .

منزلته عند العلماء رحمه الله :

فقد كان الإمام أحمد رحمه الله آيةً في الحفظ و العلم ، و حجةً و إماماً . حتى إن معاصريه أثنوا عليه بالثناء الجميل ، فقد قال علي بن المديني : ليس فينا أحفظ من أبي عبد الله أحمد بن حنبل ، و يقول : أعرف أبا عبد الله منذ خمسين سنةً و هو يزداد خيراً . و هذا قرينه و و معاصره القاسم بن سلام يقول : انتهى العلم إلى أربعة : أحمد بن حنبل ، و علي بن المديني ، و يحيى بن معين ، و أبي بكر بن أبي شيبة ، و أحمد أفقههم فيه ، ما رأيت رجلاً أعلم بالسنة منه ، ثم إن صاحبه الذي صحبه في السفر و الحضر يقول : و الله لا نقوى ما يقوى عليه أحمد و لا على طريقة أحمد (2) .

ثم يقول عبد الرحمن بن مهدي : هذا أعلم الناس بحدث سفيان الثوري ، ثم يقول : ما نظرت إلى أحمد بن حنبل إلا تذكرت سفيان الثوري (3) .

فكان العلماء يعتبرون من تكلم على الإمام أحمد بسوء متهماً بدينه و إسلامه ، و هذا أحمد بن إبراهيم الدروفي يقول : من سمعتوه يذكر أحمد بسوء فاتهموه على الإسلام (1) .

و أنشد ابن أعين في أحمد بن حنبل (2)

أضحى ابن حنبل ابن حنبل محنة مأمونة و
بحب أحمد يعرف المتنسك
و إذا رأيت لأحمد متنقصاً فاعلم بأن
ستوره ستهتكك

هكذا رأيت عدالة أحمد و مكانته بين أقرانه و معاصريه بل و الأمة الإسلامية ، فقد كان رحمه الله إمام عصره و وحيد زمانه بالعلم و التقي و الصبر و الإحتمال للمصائب و المحن ، إنه رحمه الله أية من أيات و أثر من أثار رسول الله .

من مناقبه رحمه الله :

عاش الإمام حياة زهذ و عبادة و علم و فضل و تحمل للمصائب و الإبتلاءات ، فقد كان من شأن محنة القرأن التي تصدى لها و صمد في وجه الخليفتين و صبر تحت ضربات السياط حتى ذاب جسمه كما سنرى في بحث محنته ، و هو جدير بأن يكون إمام المسلمين ، و يعتبر من ينتقص مكانته متهماً بدينه و إسلامه كما قال أحمد بن إبراهيم الدورقي : من سمعتوه يتكلم على أحمد بسوء فاتهموه على الإسلام .

فقد كان بجانب فقره و حاجته يرفض هدايا و جوائز الخلفاء و الأمراء ، و كان يحاول ردها فإن لك يتمكن تصدق بها و لم منها شيئاً لأهله زهداً عنه بها و ورعاً و خوفاً من الله

، و كان يعمل بيده و يكسب لقمة عيشه نتيجة عمله و يقول على بن الهجم : كان لنا جار فأخرج إلينا كتاباً فقال : أتعرفون هذا الخط ؟ قلنا : هذا خط أحمد بن حنبل فكيف كتب لك ؟ قال كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينة ، ففقدنا أحمد أياماً ثم جئنا لنسأل عنه فإذا الباب مردود عليه ، فقلت ما خبرك ؟ قال سرقت ثيابي ، فقلت معي دنانير فإن شئت صلةً و إن شئت قرضاً ؟ فأبى ، فقلت : تكتب لي أجرة ؟ فقال : نعم ، فأخرجت ديناراً فقال لي : اشتر لي ثوباً واقطعه نصفين ، يعني إزرتاراً و رداءاً ، و جئني بورق ففعلت و جئت بورق ، فكتب هذا (1) .

ثم قال صاحبه في السفر أثناء طلبه للعلم إسحاق بن راهويه : كنت أنا أحمد باليمن عند عبد الرزاق ، و كنت أنا فوق الغرفة و هو أسفل و كنت إذا جئت إلى موضع اشتريت جاريةً ، فاطلعت على أن نفقته ـ أي أحمد ـ فنيت فعرضت عليه فامتنع فقلت : إن شئت قرضاً ، و إن شئت صلةً فأبى ، فنظرت عليه فإذا هو ينسج التكك و ينفق (2) .

و كان إذا دعا الله يقول في سجوده : اللهم من كان في هذه الأمة على الحق و هو يظن أنه على الحق فرده إلى الحق ليكون من أهل الحق ، و كان يقول : اللهم إن قبلت من عصاة أمة محمد فداءً فاجعلني فداءهم (3) .

فرحمه الله عليه فكثرة مناقبه و أخذنا نبذةً يسيرةً منها فإنها لا تحصى .

محنته و وفاته رحمه الله :

إن العهد الذي إمتحن فيه الإمام أحمد رحمه الله ، هو عهد المأمون الذي خدع بمن زين له الإنحراف عن جادة الحق و السنة المطهرة ، و هو الخليفة العباسي الذي حمل فكرة خلق القرظظظظظىن و تبناها ، و هذا صاحب معجم المصنفين يذكر هذه المحنة فنأخذها منه ، يقول : إن المأمون قد اجتمع به و استحوذ عليه جماعة من المعتزلة ، فأزاغوه عن طريقة الحق إلى الباطل ، و زينوا له القول بخلق القرأن ، و اتفق ذلك في أخر عمره قبل موته بشهور سنة ثماني عشر و مائتين ، فقد استدعى جماعة من أئمة الحديث فدعاهم إلى ذلك فامتنعوا فتهددهم بالضرب و قطع الأرزاق ، فأجابهم أكثرهم مكرهين ، و استمر الإمتناع عن ذلك الإمام أحمد بن حنبل و محمد بن نوح النيسا بوري ، فاستدعهما الخليفة على بعير إلى الخليفة ، و هما مقيدان متعادلان في محمل واحد ، فلما كانوا ببلاد الرحبة ، جاء رجل من الأعراب من عبادهم ، يقال له : جابر بن عامر فسلم على الإمام أحمد و قال له : يا هذا إنك وافد بالناس فلا تكن شؤماً عليهم ، و إنك رأس الناس اليوم ، فإياك أن تجيب فجيبوا ، فإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت فيه ، فإنما بينك و بين الجنة أن تقتل ، و إنك إن لم تقتل نمت ، و إن عشت عشت حميداً ، قال الإمام أحمد : فكان ذلك مما قوي عزمى على ما أنا فيه من الإمتناع من ذلك ، فلما انصرفوا من جيش المأمون و نزلزا دونه بمرحلة ، جاء خادم و هو يمسح دموعه بطرف قبائه و هو يقول : يعز علي يا أبا عبد الله ! أن المأمون

قد سل سيفاً لم يسله قبل ذلك و بسط نطعاً لم بيسطه قبل ذلك ، و إنه يقسم بقرابته من رسول الله لئن لم تجبه القول بخلق القرأن ليقتلنك ببذلك السيف ، قال فجثا الإمام أحمد على ركبتيه و رمق بطرفه إلى السماء ثم قال : سيدي غر هذا الفاجر حلمك حتى تجرأ على أوليائك بالضرب و القتل ، اللهم إن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فا كفنا مؤنته ، قال : فجائهم الصريخ بموت المأمون في الثلث الأخير من الليل ، قال الإمام أحمد : ففرحت بذلك ، ثم جاء الخبر بأن المعتصم قد ولي الخلافة ، وقد انضم إليه

أحمد بن أبي دؤاد ، و أن الأمر شديد فردونا إلى بغداد في سفينة مع بعض الأساري ، و نالني معهم أذى كثير ، و كان في رجليه القيود ، و مات صاحبه محمد بن نوح رحمه الله ، و صلى عليه أحمد .

فلما رفع أحمد إلى بغداد دخلها و هو مريض و ذلك في رمضان فأودع السجن نحواً من ثمانيةو عشرين شهراً ، و قيل : نيفاً و ثلاثين شهراً ، ثم أخرج إلى الضرب بين يدي المعتصم في قيوده ، قال أحمد : فلم أستطع أن أمشي بها فربطتها بالتكة و حملتها بيدي ، ثم جاؤني بدابة فحملت عليها فكدت أن أسقط على وجهي من ثقل القيود وليس معي أحد

يمسكني ، فسلم الله حتى جئنا دار الخلافة ، فأدخلت في بيت و أغلق علي و ليس علي سراج ، قال : فأردت الوضوء فمددت يدي فإذا إناء فيه ماء فتوضأت منه ، قمت أصلي و لا أعرف القبلة لله الحمد ، قال ثم دعيت فأدخلت على المعتصم ، فلما نظر إليو عنده ابن أبي دؤاد قال : أليس قد زعمتم أنه حدث السن و هذا شيخ كهل ، فلما دنوت منه و سلمت قال لي : أدن ، فلم يزل يدنيني منه حتى قربت منه ، ثم قال لي : اجلس ، فجلست فقد أثقلني الحديد ، فمكثت ساعةً ثم قلت : يا أمير المؤمنين ! إلى ما دعا ابن عمك رسول الله ، قال : إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، قال : إني أشهد أن لا إله إلا الله ، قال : ثم ذكرت حديث بن عباس في وفد عبد القيس ، ثم قلت : هذا الذي دعا إليه رسول الله ، قال : ثم تكلم ابن أبي دؤاد بكلام لم أفهمه و ذلك لأني لم أتفقد كلامه ، فقال : المعتصم : لو لا أنك كنت في يد من كان قبلي لم أعرض لك ، ثم قال : يا عبد الرحمن ألم آمرك أن ترفع المحنة ؟ قال : قلت : الله أكبر هذا فرج للمسلمين ، ثم قال ناظروه ، يا عبد الرحمن كلمه ، فقال : ما تقوله في القرآن ؟ فلم أجبه ، فقال المعتصم : أجبه قلت ما تقول في العلم ؟ فسكت ، فقلت : القرآن من علم الله و من زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر ، فسكت ، و قالوا فيما بينهم : يا أمير المؤمنين أكفرك و أكفرنا ، فلم يلتفت إلى ذلك فقال عبد الحمن : كان الله و لا قرأن ، فقلت : كان الله و لا علم ؟ فسكت ، ثم جعلوا يتكلمون من ههنا و ههنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! أعطوني شيئاً من

كتاب الله أو سنة رسول الله حتى أقول به ، فقال ابن أبي دؤاد : أنت لا تقول إلا بهذا و هذا ، فقلت و هل يقول الإسلام إلا بهما ؟ و جرت بينهما مناظرة طويلة ، و اجتمعوا بقوله : ((ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث)) و بقوله : ((الله خلق كل شيء)) و عنه في ذلك أجوبة تحدث إنزاله ، و ذكر غير القرأن محدث فأجاب : ((ص ، و القرآن ذي الذكر)) يعني به القرآن بخلاف الذكر ، فإنه غير القرآن ، قال ابن أبي دؤاد : هو و الله يا أمير المؤمنين ضال مضل مبتدع ، و هؤلاء فضائل الفقهاء فسلهم فقال لهم : ما تقولون فيه ، فأجابوا مثل ما قال أحمد بن أبي دؤاد ، ثم أحضروه في اليوم الثاني فناظروه أيضاً ، ثم في اليوم الثالث فناظروه ، و في ذلك يعلو صوته و حجته عليهم ، قال : فإذا سكتوا فتحوا الكلام عليهم ابن أبي دؤاد و كان أجهل الناس في العلم و الكلام ، و قد تنوعت بهم المسائل بالمجادلة ، و لا علم لهم بالنقل ، فجعلوا ينكرون الآثار و يردون الإحتجاج بها ، قال أحمد : و سمعت منهم مقالات الحسم و غيره بما لا فائدة منه ، فقلت : لا أدري ما تقول إلا أنب أعلم أن اللع أحد صمد ليس كمثله شيء ، فسكت عني و قد أورد لهم حديث الرؤية في الدار الـخرة ، فحاولوا أن يضعوا إسناده ، و يلفقوا عن بعض المحدثين كلاماً ينقلون به إلى الطعن فيه ، هيهات وإني لهم التناوش من مكان بعيد ، و في غضون ذلك كان يتلطف به الخليفة و يقول : يا أحمد أجبني إلى هذا حتى أجعلك من خاصتي و ممن يطأ بساطي ، فأقول يا أمير المؤمنين

يأتوني بأية من أيات الله أو سنة عن رسول الله حتى أجيبهم بها ، و احتج عليهم أحمد وحين أنكروا الاحتجاج بالآثار بقوله تعالى عن إبراهيم : ((يا أبي لم تعبد ما لا يسمع و يبصر)) و بقوله : ((و كلم الله موسى تكليماً)) و بقوله : ((إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني)) و بقوله : ((ألا له الخلق و الأمر)) و بقوله إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون)) فلما لم يقم لهم معه حجة عدلوا إلى جاه الخليفة في ذلك . فقالوا : يا أمير المؤمنين هذا كافر ضال مضل ، و قال له إسحاق بت إبراهيم نائب بغداد : يا أمير المؤمنين ليس تدبير الخلافة أن يخلي سبيله ، و يغلب خليفتين ، فعند ذلك حمي الخليفة و اشتد غضبه و كان الينهم عريكةً و هو يظن أنهم على شيء ، ، قال أحمد : فعند ذلك قال : لعنك الله طعمت أن تجيبني ، ثم قال : خذوه فغلوه و اسجنوه ، قال : فأخذت و سجنت و جيء بالعقابين و السياط و أنا أنظر و كان معي شعرة من

شعر النبي صرورة في ثوبي فجردوني منه فصرت بين العقابين ، فقلت : يا أمير المؤمنين و تلوت الحديث إن رسول الله قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوا عصموا مني دمائهم و أموالهم ، ففيم يستحل دمي و لم آت شيئاً من هذا ، يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين يدي الله كوقوفي بين يديك ، و كأنه أمسك عني ، ثم لم يزالوا يقولون له : يا أمير المؤمنين ! إنه ضال مضل كافر ، فإمرني فأقمت بين العقابين و جيء بكرسي فأقمت عليه ، و أمرني بعضهم أن آخذ

بيدي الخشبين فلم أفهم ، فخلعت يدي و جيء بالضرابين و معهم السياط ، فجعل أحدهم يضربني سوطين و يقول : شد قطع الله يدك و يجيء الأخر فيضربني سوطين . ثم الأخر كذلك فضربوني أسواطاً ، فأغمى علي و ذهب عقلي مراراً ، فإذا سكن الضرب يعود إلي عقلي ، و قام المعتصم يدعوني إلى قولهم فلم أجبه ، و جعلوا يقولون : و يحك الخليفة على رأسك فلم أقبل : فأعادوا الضرب ، ثم عاد إلي فلم أجبه ، فأعادوا الضرب ، ثم جاءه إلى الثالثة فدعاني فلم أعقل ما قال من شدة الضرب ، ثم أعادوا الضرب فذهب عقلي فلم أحس به ، و أرعبه ذلك من أمري و أمربي فأطلقت فلم أشعر إلا و أن في بيت من حجر و قد أطلقت الأقياد عن رجلي و كان ذلك في اليوم الخامس و العشرين من رمضان من سنة إحدى و عشرين و مائتين ، ثم أمر الخليفة بإطلاقه إلى أهله و كان جملة ما ضرب ضرب نيفاً و ثلاثين سوطاً ، و قيل : ثمانين سوطاً ، لكن كان ضرباً مبرحاً شديداً (1) .   و عاد إلى أهله و عولج من أثر الضرب ، ثم بعد ذلك أخذ الخليفة يتفقد أخباره باستمرار ، و أرسل له هدية عشرة آلاف درهم ، فرفضها ثم بعد ذلك تركها عنده خوفاً من أن يغضب الخليفة ، و لم ينم الليل حتى أرسل أهلهو أولاده و سجل سماء الناس و وزعها جميعها مع الكيس ، لم يترك منها شيئاً أبداً و هو بأمس الحاجة إلى مثلها ـ أي مايسد حاجته ـ رحمه الله (2) . و يقول علىا ابن المديني : إن الله عز و جل أعز هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث : أبو بكر

الصديق يوم الردة ، و أحمد بن حنبل رحمه الله يوم المحنة (3) .

و أما وفاته رحمه الله فقد كانت باتفاق العلماء سنة مائتين و إحدى و أربعين ، بذلك قال الذهبي ابن خلكان و الخطيب ، و ذكر غير ذلك ، و لكنا أثبتنا الأصح ، و كانت وفاته يوم الجمعة في بغداد و دفن بها و حضر جنازته خلق لا يحصى عددهم فرحمه الله عليه .

تصانيفه رحمه الله : ()

إن الإمام أحمد رحمه الله كان قد وجه عنايته للحديث الشريف أكثر من الفقه ، و تناول الحديث حفظاً و ترتيباً ، و لهذا وجدناه لا يحدث إلا من كتاب ، و قد استنبط بعض الأحكام الفقهية و هي التي لم يرد منها نص من كتاب أو سنة أو الصحابة ، و نادر ما نجد نفي عصره مسألةً إلا و سبه إليها أسلافه و مشايخه كالشافعي و مالك و أبي حنيفة رحمهم الله ، غير أن اجتهد في المسائل التي رآها ضرورية ، و لم يسمح بتدوين آراءه الفقهية ، و لهذا لم نجد في مصنفاته ما تكلم به هو تلامذته ، أو ما رواه هو من حديث ، و ما جمعه في مسنده المشهور بسند أحمد بن حنبل . و قد ذكر صاحب " معجم

المصنفين " مصنفاته فنرجع إليها فقد قال : و قد نسب إلى الإمام أحمد كتب كثيرة ، فقد ذكر ابن النديم البغدادي في فهرست العلماء في مصنفاته : كتاب العمل ، كتاب التفسير ، كتاب الناسخ و المنسوخ ، كتاب الزهد ، كتاب المسائل كتاب الفضائل ، كتاب المناسك ، كتاب الإيمان .

و ذكر في " كشف الظنون " : كتاب الأشربة الصغير ، كتاب الإعتقاد ، رواه عن الإمام و أملاه أبو الفضل عبد الواحد التيمي ، و كتاب الإيمان ، و قال في كتاب الزهد هو أجود ما صنف في هذا الباب كما قاله ابن تيمية رحمه الله ، و كتاب مناقب علي بن أبي طالب ، و كتاب " المسند ، و قال : يشتمل على ثلاثين ألف حديث ، و نسب إليه التاريخ الكبير (1) .

إن هذه الكتب التي ذكرناها ليست من تصنيف الإمام بيده إلا الكتب التي شملها في المسند ، فقد يكون أصحابه و تلامذته نقلوها عنه و دونوها على لسانه بعد أن سمعوها خلال مجالستهم له ، و إن أغلب رواة هذه الكتب ثقات أجلاء فرحمة الله على الإمام و على أصحابه ، و رحمه الله على سائر الأئمة الفقهاء الأعلام . و به نختم الباب الثاني الذي بحثنا فيه بعون الله تعالى تراجم الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى ، و يليه الباب الثالث بعون الله تعالى .